وجاء الصيف

مجموعة قصص سودانية

ابوبكر خالد

وزارة الثقافة والاعلام

مصلحة الثقافة

الطبعة الاولى ١٩٧٤

الناشرون

ادارة النشر الثقافي

الطابعون شركة الطابع السوداني المحدودة

اهـــداء

الـى الـراحـل المـقـيـم

المـربـى الـفـاضـل

الـى أبــى

أبو بكر

الريال

كانت الشمس قد انحدرت للمغيب وأنا أجلس امام منزلى كعادتى فى أول المساء ، أجلس على هذه الرمال واعبث فيها بيدى ، او بعود ارسم به دائما •• ويخيل الى فى منزلى المنعزل أننى سأبقى أبدا فى هذه القرية •• واننى سأصبح ذات يوم اشبه بشجرة التبلدى تلك ، لى جذور تضرب فى داخل الارض ، وتشدنى اليها •• أنا الذى فرغت حياتى من كل معنى •• ونضب قلبى قبل الاوان •• فحتى ذكرياتى الخضراء ليس فيها خيال أو ظل لامرأة •• وبت فى غربتى الحمقاء أتخيل نفسى محبوبا من امرأة فى مكان مجهول •• وكانت احلامى هذه تنثال فى لحظات أغرق فيها فى هذا العالم الساحر الذى أصنعه فى رأسى •• لا يهبط بى للارض الا سماع تحية تلقيها عابرة :

ـ آفيه ••

واتابعها بنظراتى قبل ان اتبين ملامحها •• وعندما تمضى •• التفت هناك •• امد بصرى فلا يوقفه شىء •• السماء ليست صافيه •• عيون الاهالى ترقبها هذه الايام •• سحائب الخريف بدت كقطعان قلقة ترحل هنا وهناك •• تجتمع وتتفرق، لا يهدأ لها بال أو تستقر على حال •• وألمح الرمال بساطا هائلا

طرزته شجيرات العشر التى انكبت على الرمال ترضعها طوال اشهر الصيف •• وكنت فى مجلسى هـذا أسلى نفسى بمراقبة الفتيات فى دخولهن او خروجهن من السوق •• وشهد مجلسى هذا دائما منافسة غير متكافئة تقوم كل يوم بينى وبين شجرة النيم •• وقطع خواطرى خروج الدكتور بمقعده المريح حتى استقر به تحت شجرة النيم العجيبة ••

والدكتور هو مساعد الحكيم •• وهو لا يرضى عنا لو حرمناه هذا اللقب الفاخر •• والممرض الذى يعمل معه هو الحكيم •• اما عامل الصحة فهو مساعد الحكيم •• وليس فى نيتى ان اقلل من شان هذه الالقاب •• لولا ان الدكتور عندما يخرج بمقعده تنصرف اليه انظار الفتيات العابرات ••• ويطول مكوثهن تحت شجرة النيم •• ولو تغيب الدكتور لحل محله الحكيم « ••••••• » وفى السوق اجد مساعد الحكيم يسرق اهتمام البنات بالأدويه التى تملا جيوبه •• ولحظتها كنت ابكى حظى الذى رمانى كوكيل بوسته •• فمبنى البوسته لا يعرف الطريق اليه غير التجار •• وعندما شعرت بالاهمال من قبل النساء فى السوق اقمت « سبيلا » اشتريت له زيرا كبيرا ،الامر الذى طرب له الشبان الذين يعملون معى •• واصبحت الفتيات يعرفن مبنى البوسته •• ورغم كل هـذا فقد ظللت محتفظا بعذريتى •• اقـاوم فى يأس الشباك التى تنصبها الفتيات •• وقطع خواطرى هـذه المره مجىء خادمى •• وخادمى رجل عجوز ، كان عاطلا قبل ان استاجره •• وظل عاطلا بعد ان دخل منزلى ، لانه لايحسن شيئا قط ، اذا كلفته بنظافه شىء ،

ازال ما تبقى به من نظافة •• وان لم ابعثه للســوق تكوم فى ركن ونام ، وان خرجت لعملى احضر خمرا وظل يتناوله حتى اجده محمر العينين •• ثقيل الاجفان •• متبلد الحركة •• ورغم ذلــك فأنا لا استطيع الاستغناء عنه ، مــع اننى ادس اللقمة التى يصنعها لى دسا فى فمى •• واحتال عليها حتى أسقطها فى جوفى •• ويربض بالقرب منى وبسمته تتسع كأنه صنع شيئا معجزا •• وكان عندما يتخذ مجلسه هذا قريبا منى يبدأ حديثه دائما بلعنة النساء ويصف لى القوة التى كانت له والنعيم الذى كان يتقلب فيه وهو يتنقل بين بيوت زوجاته •• وتضيق عيناه وتربد سحنته وهو يذكر المباراة التى كانت تقوم بين زوجاته •• لكل واحدة زراعتها ومحصولها ودوابها •• وكان يشبه ملكا غير متوج وهو يرى جارياته وتهافتهن والحب الــذى يبذلنه فى ايمان خالص لا تشوبه شائبه •

ثم يزوم وترتخى عروق وجهه وينطفىء بريق عينيه وهو يلعن النساء ومكرهن •• وكيف ادرن ظهورهن •• فأصبح يجهد نفسه ليجد لقمته •• وكيف انــه ترك وحيدا ليقابل شيخوخته ويشقى بها • وكان دائما ينتقل فجــأة للحديث عن الصالحين والاسياد •• وتتملكه نشوة عجيبه وهو يبدى استعداده للفناء فى سبيلهم •• ويقول هــذا فى انفعال حــار •• ثم يهدأ •• ويسكن لبوادر النعاس وهو يمسح شعيرات لحيته التى أراها مبتله بالمريسة طوال اليوم •

كنت انظر اليه هذا المساء ، وقد راودتنى فكرة قديمة •• وعندما أبصرته وقد فرغ من قصصه وشكواه قلت :

ـ يا أبكر انت ماشي البيت ؟

ـ كو ••• انتى تنتطينـــى •••

ريال أنا صباح ما يجى •• بت يجى يعمــل اللقمه ••

وتذكرت انه ارسل ذات يــوم كبرى بناته لتقوم باعداد الأكل وتنظيف البيت •• واذكر اننى عانيت ذلك اليوم اضطرابا وحيرة ، عندما اقتحمت على هذه الفتاة منزلى •• وقد سألت يومى ذاك نفسى •• الا يخشى هذا الرجل على ابنته حين يدفع بها لهذا البيت وهى لا تحس شيئا مثله •• وان كان لها شىء •• فهو هذا الجسد الفاتن •• عيناها جميلتان فيهما سحر من نوع نادر •• أنفها على ضخامته يبدو متناسقا مع شفتيها المكتنزتين قامتها فارعه تبدو غير ثابته •• فهى لشدة طراوتها تموج كفرع البان •• ولعنت يومى ذاك خادمى وجمعت خواطرى اللعينه وهربت من المنزل قبل موعد خروجى •• ها هو يجلس امامى •• استطيع أن أبثه شيئا مما أجده فى نفسى •• لقد أفلت الأمر منى ، ولم يعد فى مقدورى التمسك بهذا الوقار الذى ارهقنى منذ ان حللت بهذه القرية ، ها هــو يجلس وعيناه تتحــدثان بشىء •• الا انتهز الفرصه واتحدث أنا •• اليست هذه لحظة مناسبة اقول فيها أشياء اقضت مضجعى لايام خلت •• ابكر مازال يطلب ريالا •• ونظراته تشى بشىء •• ان لم امهد لــه الطريق كف عن المحاوله •• وعندما يبتلعه الظــلام سـأعود للعذاب •• ورفعت بصرى •• خيل انه كان يقرأ خواطرى •• فقد استقبلتنى عيناه بنظرة خبيثة مشجعه •• وبدا لى أنــه

يشبه حيوانا أليفا ربض تحت اقدام سيده ، ينتظر اشارة منه ليهز ذيله ويتمسح به .

ــ أبكر عندى كلام داير اقولو ..

عارف شنو ؟ .

ــ كــو ..

ــ انا عايز اشوف الحله ..

اتسعت ابتسامته وشعت عيناه بوميض سريع ..

ــ انت تنطينى ريــال .. ؟

ــ موافق ..

ــ شمس بغيــب أنا بمشى معاكــى .

وحسبت أن قرص الشمــس قد تعلــق وثبت فى مكانه .. وان ســاعتــى لــم تعـد جـادة فى حسـاب الزمـن .. فالوقــت يمــر بطيــئا مرهقا وأعصابى متوترة وأنــا أرقب بواكــير الظــلام بعــد أن فتــر الحديث ولــم أجــد شيئــا اقوله .. اما ابكر فقد كان شعاره كما خيل الى ، ساعه لنفسك وساعة لربك .. اذ انه ذهب يستعد لصلاة المغرب .. وبعــد فراغه جاء ووقف ينظر لى كأنه يحمل كلاما .. وقبل ان اسأله اختفى وعاد هذه المــرة يحمل اناء مملوءا بالخمــر .. وجلس يشرب وكانت عادته الا يفعل شيئا من ذلك امامى .. حبست ضيقا فى صــدرى وأنا اتحاشى النظــر اليه .. وعندما نامت القرية واختفت مبانى القش الصغيره كأنها ذابت فى الظلام .. خرج بى نلتمس طريقنا فى حيطة وحــذر .. وخــوار الدواب

وعواء الكلاب احس فيه شيئا غريبا كأننى لم اسمع شيئا من ذلك قبل هذه الليلة •• ووقف بى أبكر أمام قطية •• تسبقنى الى داخلها ومكث فيها وقتا •• سمعت همسا متصلا واخيرا ابصرت نورا باهتا يضاء وصوتا يطلب منى الدخول •• وخرج بكر ليأخذنى بعيدا ويهمس :

ــ الريال ••

ولم اكترث لفرحته ولا لابتسامته البلهاء حين تشنجت يده على الريال •• اذ كنت فى شاغل عن كل ذلك بما عسى ان اجده داخل القطية •• وأخيرا دخلت •• وعلى ضوء مصباح خافت أستطعت أن أتبين الفتاة التى هبت لاستقبالى وهى تعلق على جانب ثغرها بسمة ماكرة •• عيناها جميلتان فيها سحر من نوع نادر •• انفها على ضخامته يبدو متناسقا مع شفتيها المكتنزتين ، قامتها فارعة ، تبدو غير ثابتة ، •• فهى لشدة طراوتها تموج كفرع البان •• وقفت لحظة أنظر •• ومن غير ان اقول شيئا •• استدرت وخرجت •• وعندما استيقظت فى الصباح وقع بصرى على مصباح صغير مازال ضوؤه الباهت يحتفظ ببقيه من حياة ••• وابصرت فتاة أعرفها تعطينى ظهرها وهى تتخفف الحجره • اوشكت ان أصرخ طالبا منها الخروج ولكن عندما التفتت الى •• أحسست أننى لا أستطيع أن أفعل شيئا •• فجذبت طرف الغطاء على وجهى محاولا النوم مرة أخرى •• وأنا أقول لنفسى خير لك أن تنام أيها العبيط •

مات في اكتوبر

فى مقهى (الفكى) بسوق الليل فى امدرمان .. كنت اجلس فى الصف الاول .. والناس فى المقهى وامـــام دار الســـينما يتكاثرون .. حتى اصبح شارع الاسفلت مغلوبا على امره .. لا يجد فتحة يشم بها الهواء ، ورأيت شابا يستأذن فى الجلوس بعد ان قام الشخص الذى كـــان يشغل المقعد المجـــاور لى ، سمحت له ، فجلس صامتا ، وشغلت بأشياء تدور فى رأسى .. واخرجت منديلى امسح به حبات العرق من وجهى وعنقى .. لفت نظرى ان الشـــاب ينقر بقلمه عـــلى المنضدة بانتظام .. استرقت نظرة من غير ان التفت اليه .. خيل الى انـــه يهمس بشىء .. التفت هذه المرة فاكتشفت سرا ، ما كان لى أن أقف عليه .. وقال كأنه يمسح ما علق برأسى من شكوك :

ـــ أرى لافتات كثيرة .. معلقة هنا وهناك .

قلت :

ـــ غدا يحتفل الناس بأكتوبر ..

صمت برهة ثم قال :

ـــ ولماذا يحتفلون بأكتوبر ؟ !

حسبت انه يسخر من ثورة اكتوبر .. فرأيت ان لا ادخل نفسى فى جدل لا قدرة لى على احتماله .. فقلت :

ـــ الناس دائما يبحثون عن مناسبة يحتفلون بها .

مشت على عينيه سحابة داكنه ورأيت شفته السفلى تنفرج ثم تأخذ شكلا شاذا ، وهى تحاول أن تعود لمكانها •• ثم تفشل المحاولة ، فترتجف فى هزة عصبية •• يسيل لعابه •• وترمش عيناه فى توتر واضح •• ثـم يغطى وجهه بيديه ويلبث فترة ، وانا ارقبه نادما على حشر نفسى فى امر لم تكن لى فيه رغبة •• ومكثت أنظر اليه وهو على حالة لا يرفع رأسه لى ، ثم وجدت نفسى اعود لما كان يشغلنى اما متى عاد •• وكيف جـاء هـذا الشاى••وصار يرشفه هكذا •• فهذا أمر حرت فيه •• وانتبهت لهذا عندما سألنى •• كأنه مكلف بعذابى :

ـ قلت يا سيد •• ان الناس يبحثون عن شىء يحتفلون به ؟ •• اذا كان الامر كذلك •• فلماذا لا يحتفلون بكل الشهور •• فالشهر يجىء مرة واحدة فى العام •• ولعل مجيئه هـذا يكون مناسبة طيبة للاحتفال ••

حاولت ان اجارية فى سخريته •• رغم ان صلتى بالسياسة تنحصر فى تلك الأيام •• ايام الانتخابات •• حيث اتحول من مسك قرون الماشيه وحملها للعربات •• للقبض عـلـى المواطنين وحملهم للعربات التى يستأجرها حزبنا •• او الحـزب الـذى يطرى موهبتى اكثر ويحفظ لها حقوقها كاملة من غير نقصان •• لذلك لم اهتم كثيرا فى مجاراته وأنا اردد عبارة سمعتها من احد الافنديه :

ـ اكتوبر •• هذه البقرة العجيبة •• التى ارضعت الكثيرين لبنا رائقا •• ولم يجد ابناؤها غير العلقم •• وعندما رمقنى فى اعجاب •• ركبنى غرور من فصاحتى التى ادهشت هذا الافندى

•• فاعتدلت فى جلستى شأن من يستعد لحديث طـويل ولكن وقف فى هذه اللحظة شيخ مربوع القامة •• يلبس عباءة فاخرة •• والقى بتحية فى صوت عميق •• ولما ابصره الشاب حـاول ان ينهض فعجز •• وتدلت شفته السفلى وارتجفت وسـال اللعاب ورمشت العينان •• وغطى وجهـه •• كأنه لا يود أن يرى الشيخ •• على حين ظل الشيخ واقفا •• فنهضت ولكن الشيخ امسك بكتفى يمنعنى من القيام ويقول :

ــ شكرا يا أخى •• اننى ذاهب •• وأرى ان آخذ اخاك هذا معى •• أنه ابنى ••

وارتفع صوت الشاب من غير ان يرفع يديه عن وجهه :

ــ لماذا تتبعنى ؟ ••

ــ أنـــا •••

قالها الشيخ فى استنكار ثم اردفه :

ــ رأيتك جـالسا •• فحسبت أنك ستصحبنى للبيت •• خاصة ووقت زيارة الطبيب قد حان ••

ــ لن اذهب ••

لفظها فى نبرة جافة •• ثم اضاف :

ــ لى حديث مع الأخ لم أكمله بعد •• لماذا تلاحقنى •• قلها صريحه •• هل أنا مجنون ؟ ••

زاد قلق الشيخ وهو يبصر العيون قد اتجهت الينا من كـل جهة فالتفت لى مستعطفا :

ــ يا ابنى هـل تأتى معنا للمنزل •• ارجـو ان لا ترفض فأخوك هذا لم يتحدث منذ سنة لانسان سواك ••

وعجبت فى نفسى •• أنا الذى أتصيد انسانا أبثه همومى التى لم اعد احتملها •• انا يقع على الاختيار •• لافعل شيئا لهذا الشاب •• ومن غير ان اتدبر الامر نهضت وأنا أقول :

— قم يا أخى •• سنكمل حديثنا فى البيت ••

ونهض ثلاثتنا •• وقد صمت المقهى وتحول الى أذان وعيون •• وعندما احتوتنا العربة الفاخرة •• كنت أمرغ يدى خلسة فى فرشها الناعم ، وفى تلك الفيلا بحى الامتداد وجدنا الطبيب ينتظرنا فى الصالون •• واجريت مقارنة سريعة بين وضعى ووضع الطبيب •• وتأكدت اننى اعيش لحظات فريدة فى نوعها •• عمامتى الرفيعة المتسخة التى تشبه الحبل •• وجلبابى الرخيص وهذا المركوب اللعين •• وجيبى الفارغ كقلبى •• ماذا افعل هنا •• لماذا اختارنى أنا •• وعندما دخلت صبية حسناء تثب كالغزال •• رأيتها تشملنى بنظرة استنكار ثم تتركنى كأنها لم ترنى ••وتجلس هناك تختلس للطبيب نظرات فيها ود محبوس •• آه •• لو دخلت فى ثياب هذا الرجل ونعمت بهذا القصر وتزوجت هذه الصبية •• لو حدث ذلك •• ووجدت الموت ينتظرنى فى الصباح •• فاننى اصحبه غير نادم •• لو رآنى اصدقائى فى زريبة المواشى تجفف عرقى هذه النسمات الحلوه •• لقالوا انها ليلة القدر •• واتتنى من حيث لا احسب ، ولكن لماذا اختارنى انا ليتحدث الى بعد صمته الطويل •• واستيقظت على صوت الشاب يقول :

— أين صاحبى ؟ ••

— أحسست بالكلمة تلمس شيئا فى نفسى •• وتبعث فرحا ظل

ينمو ويكبر داخلى حتى انتشت حواسى كلها •• آه •• لو رآنى فى الصباح امسك بقرون الخراف واحمل بعضها على كتفى ••

واستسلم صاحبى سريعـا لاغفـاءة طويلة •• ولحظتها اقترب منى الشيخ والطبيب •• وجعلنا نتبادل الحديث •• وأنا احس بغربتى •• وافتش الكلمات •• ويسعفنى ذكاء السـوق بكلمات اقولها لاكبر امام هؤلاء القـوم •• كنت فى جلستى احاول اخفاء مركوبى اللعين بجلبابى الواسع واضم اصابعى أدس أظافرى الطويلة المتسخة التى لم ألحظها غير هذا اليوم ••

وقال الشيخ يسألنى :

ــ أين تعمل يا أبنى ؟ ••

فوجئت ولكننى اسرعت قائلا :

ــ سمسار فى سوق امدرمان ••

صمت الشيخ برهه ثم استأنف حديثه :

ــ أأنت متزوج ؟ ••

لا أدرى لمـاذا تذكرت الصبية الحسـناء التى رأيتها عند دخولى ••

ــ لا •• لست متزوجا وأنا غريب فى هذه الديار •• اكسب من السوق كل صباح لقمتى •• وتقل وتكثر حسب السوق ••

رأيت وجه الشيخ ينبسط •• وشفتيه تتحركان فى محاولة لرسم بسمه خفيفه •• المحاولة لا تتم •• ولكن صفحة وجهـه منطلقة •• العينان تبتسمان وهو يقول :

ــ ما رأيك ان تعمل معنا فترة •• وعملك ينحصر فى مرافقة صديقك هـذا •• ولانطلب شيئا اكثر •• وسنعطيك اكثر مما اعتادت السوق ان تمنحك ••

قلت فى نفاق خجلت بمده من نفسى ••

ــ انا مستعد لملازمته •• وهذا عمل خير وانا لا آخذ شيئا لمثل هذا العمل ؟••

فابتسم الشيخ وهو يقول :

ــ يبدو انك رجل طيبب حقـا •• وهـذا يفسر اقبال ابنى عليك •• على كل حال •• لابد من اجر لك ••

عندما خرج الطبيب •• ونام صاحبى جلس الشيخ يحدثنى عن ابنه لألم بشىء من حياة الانسان الذى سأرافقه قـال فى أسى بالغ :

ــ ليلة ندوة الاربعاء •• كان ابنى يعد نفسه لهذه الندوة فى حماس كرفاقه الآخرين •• ويومها علمت من احد اصدقائى فى الجيش •• ان هذه الندوة ستفض بعنف شديد •• ونصحنى ان امنع ابنى من حضورها •• فذهبت فى أول المساء للجامعة ••

وقابلته واحضرته معى للبيت بدعوى ان امـه مريضة •• وعندما دخل البيت صارحته بالامـر ومنعته مـن الذهاب •• مستخدما كافة الوسائل بما فى ذلك استعمال القوة •• هـو ولـدى الوحيد •• لعلك تدرك دوافعى تلك الليلة الرهيبة •• وقامت يا أخى الندوة •• وفضت بعنف شديد •• ومات طالبان وجرح كثيرون •• ولكن ولدى الـذى لم يحضرها كـان جرحه أبلغ •• ومن يومها أصبح هكذا كالروح الهائم •• لا تشـده

للحياة صلة او يربطه بها سبب .

قال هذا الشيخ .. ونهض متحاشيا ان أرى وجهة الـذى امتلأ بتعبير غريب .. ولحظتها فقط لمست هذه العائلة شيئا فى نفسى .. فتبخرت اوهامى وشعرت بالحاجز الـذى يفصلنا يتلاشى ويذوب .. فاذا بى لاول مرة احس كأننى فى بيتى .. وان أخا لى أصابه شىء .. واستأذنت الشيخ وخرجت على أن اعود فى الصباح ..

وفى بقية تلك الليلة عكفت على ثيابى اغسلها وعـلى بدنى انظفه .. وعندما رضيت عن هيئتى خرجت فى الصباح للسوق واشتريت حذاء جميلا .. ومن هناك أخذت طريقى لحى المطار .. وهناك .. علمت ان صاحبى قد استيقظ وظللت انتظره فى الصالون وكان الشيخ قد خرج لعمله .. وعندما دخل الشاب .. وقف ينظر لى فى عجب ظاهر .. شعرت بحرج بالغ ..

اقترب منى وهو يفحصنى بنظرة احتقار مريضة ..

ثم قال بعد ان نفذ صبرى :

ـ لماذا فعلت هذا ؟ ..

لم افهم قصده .. واصل حديثه قائلا :

ـ لقد قتلوك انت ايضا ..

كلمات غريبه وعيناه تشعان بوميض يتغير بين لحظة وأخرى شفته السفلى تتدلى .. ترتجف .. يصرخ :

ـــ قتلونى فى أكتوبر •• وأنت قتلوك أيضا فى أكتوبر •• اخرج لم تعد صاحبى •• لا اود ان أراك ••

وتملكته هزة عصبية عنيفة فترنح وسقط •• وحملته لداخل المنزل •• وعندما حضر الشيخ وحكيت له ما حدث نكس رأسه فترة ، ثم قال لى :

ــ لا أدرى كيف فقدت صداقته بهــذه السهوله •• اذهب يا ابنى وشكرا لك ••

وحاول ان يدس شيئا فى يدى فرفضت وخرجت وأنا أسأل نفسى •• كيف مات صاحبى فى اكتوبر والسؤال الذى اشقانى اكثر ، لماذا قال اننى مت ايضا ••

قلب انســان

كان القطار يمضى بنا غربا فى رحلة طويلة ، وقضيت ليلة كاملة لم أجد احدا اتحدث اليه كان كثير من الركاب قد شاركونى احاديث عابرة •• وكانوا يتفرقون سريعا ، كانت لحظاتهم معى قصيرة ، فسرعان ما وجـدت نفسى وحيدا وعندما دخـل بنا القطار محط بابنوسه عجبت لرؤية صديق قديم يحمل فى يده حقيبة سفر ويدخل بها القطار واسرعت خلفه •• فلان •• فلان •• وكان عناقا حارا وفرحة عظيمة للقـاء لـم يكن متوقعا ، وعرفت انه ذاهب لنيالا أيضا •

وعندما تحرك بنا القطار التفت اليه اقول مداعبا : ــ واخيرا سقط الحصن المنيع • وتزوج عدو المرأة ••

ــ • • • • • • • •

ــ لقد قرأت خبر زواجك فى الجرائد • وتألمت لانك نسيت أصدقـاء لك •••

ــ أنـا تزوجـت ؟!!

ــ انا اعلم خبر زواجك •• فلماذا تتكره ؟

وزاد عجبى حينما حاول ان يتذكر موضوع هذا الزواج !! •• كأنه يتذكر شيئا تافها يحتمل أن يحدث ولكنه لا يتذكره الآن !!

واقتربت منه وقلت ..

ــ اننى ارغب فى الزواج ايضا .. واود ان استفيد مـــن تجربتك ، وبما أن معرفتى للفتيات ضئيلة ، فهذه فرصة طيبة ان اجتمع بك هنا ، وأن آخذ عنك شيئا ، ربما يفيدنى فى مغامرة العمر .

وقال لى وهو ينظر بعيدا : ــ

ــ احقيقة ترغب فى الزواج ؟

ــ نعـــم

ــ هل فكرت كثيرا ؟

ــ اعتقد ذلك

ــ كم عمر فتاتك ؟

ــ بين الثامنة عشر والعشرين .

ــ اتعرفها منذ فترة طويلة ؟

ــ نعـــم

ــ أتتبادلان شيئا مما يسمونه العواطف ؟

ــ من جهتى نعم ...

ــ ومن جهتها ؟

ــ لست متأكدا !!!

ــ كيف ؟

ــ انت تعرف طباع البنت السودانية اكثر منى

ــ البنت السودانية !! ها .. ها .. ها

ـ ألا تزال تكفر بحب البنات ؟

ـ اكثر مما كنت

ـ الا يوجد هذا الحب فى بلدنا ؟

ـ هذه حقيقة

ـ بم تنصح من كان فى مثل موقفى ؟

ـ ان لا يتزوج .. !! ها .. ها ..

ـ لمـــاذا ؟

ـ ابحث عن فتاة .. تأكد اولا انها لاتحبك

ـ فتاة لا تحبنى وأتزوجها !!

ـ هذا هو العقل بعينه ، أنها تعرفك أكثر من غيرها .

ـ لا افهــم

ـ حسنا اليك قصتى التى أحس بلهفتك لسماعها ..

وتألمت ، وانا ارى وجهه ينطفى وعينيه يموت فيها البريق والحركة وسحابة حزن عميق تلون نبرات صوته الخافت .. قـــال :

ـ انت تعلم اننى قد انفقت مـــن عمـــرى خمس سنوات وانا مدرس بمدرسة (...... الثانوية للبنات) ... ورغم ذلك ، لم اجد شيئا قد تغير فى نفسى ان تلميذاتى لسن نساء على أية حال اننى أبصر شقاوتهن وعبثهن وطفولتهن .. وأهز رأسى لا .. لا . ان سخطى على المرأة لا يمكن تسليطه عـــلى

زهور صغيرة لم تتفتح للحياة ولم تخبرها بعد ..

لقد عشت لحظات من حياتي مع يوسف غراب حتى باتت لي حاسة سادسة قريبة من حاسته اعرف بها النساء من بعد .. وكنت في ايامي تلك متنه تماما ارى المـراة عبر النافـذة التي فتحها لي ، فعلى كثرة من عرفت من نساء كنت دائما عسـير المنال ، كثير الحذر ، سريع الهرب كلما شممت رائحـة شراك قريبة ..

... ومضت بى السنون تعرفت خـلالها على عبد الحليم عبد الله ، وعرفت عنه خوفه من المراة وتردده وتشاؤمه ونالنى ما كان عليه من مسحة حزن دائم واصبحت اردد معه (لاتجعلنا نحب من يحببوننا حتى لا تشقنا بالحب مرتين يا الهى) .

وهكذا مرت الاعوام كل يوم تترك فى وجهى اثرا يقول لى اننى معلم لسنوات مضت وسنوات آتية واصبحت لا اطيـق رؤية وجهى فى مـرآة . فالشعيرات البيضاء قـد تسللت الى راسى واندست خوفا من اصابعى وكنت اعلم تماما ان افكارى عن المراة لن تتغير ، وأن حياتى الراهنه عذاب متواصل يحث خطاه الى غاية معلومه .

وحاولت ان اكره مافى رأسى من افكار ومخاوف .. حاولت ان ابتسم ان اعيش ان ازيح مافى صدرى مـن قلق واوهام ، وبكلمة قررت الهرب مـن نفسى واللحاق بالحياة التى اراهـا تنبض فى كل ما يحيط بى .

واول خطـوة اتخذتها هى هجـر منزلى (بود نوباوى)

والانتقال الى منزل انيق بحى الملازمين • وشعرت براحة لـــم أذق لها طعما قبل ذلك • انتى أعيش الآن واحسرتاه على العمر الذاهب ••

وشاء حظى ان تكون جـــوارى اسرة ابرز معالمها الجمال ، الوالد وهو شيخ طاعن يبدو فى مظـــهره أنيقا كشاب ذاهب للاختبار الشخصى وابنته الوحيدة احســـان تلميذتى الجميلة التى لاتصلح للزواج كما اعتقدت فى يوم بعيد وزوجه من نساء الجيل الماضى لا تجهر نفسها لرجل فلم اعرف عنها سوى يدها الساحرة التى خلقت من البيت جنة صغيرة •

عندما تعرفت على والد احسان وتبادلنا الزيارات لم يكن يخطر لى على بال ان شيئا كبيرا يمكن ان يربطنى بهذه الاسرة ولكن حدث أن وجدت فى جارى شخصا طـــالما بحثت عنه •• الرجل المثقف الذى يعنى بذهنه ومكتبته مثل عنايته بملبســــه ومظهره الاجتماعى وسرعـــان ما توثقت الروابط بيننا فكلانا محب للادب شغوف بالشعر يعالجه فى بعض الاحيان واصبحت مرتبطا بهذه العائلة اكن لها حبا اكيدا •

ولكننى شعرت بتغير واضح فى سلوك احسان فى المدرسة لم تعد كرفيقاتها تقتحم على مكتبى بكراسة من كراساتها ،، لم تعد ترانى كأخ كبير كما هو الحال فى المـــاضى ، أصبحت متحفظة بشكل غريب تطل من عينيها نظرات فيها خوف من شىء مجهول ، ووجدتها بلا شعـــور ترصد حركات زميلاتها وأحاديثهن وأسئلتهن كلما دخلت الفصـــل • وكنت كعادتى لا

أهتم لبنت صغيرة لا تزال تلميذة لى ويبدو أن عدم اكتراثى لها جعلها تحس بجرح تشعر به كل أنثى عنـــدما تلحظ انصراف انسان عنها ووضح سلوك احسان الشاذ فى البيت فهى لم تعد تقابلنى على الاطلاق وان حدث بمحض الصدفـــة أن سقط بصرى عليها تهرب فى ارتباك كأنها لم تكن احسان التى رأيتها فى ايامى الاوائل فى هذا البيت تقبل على فى محضر والدهـــا وترهقنى بالاسئلة التى يشترك والدها معى فى الاجابة عليها •

بدأت أعرف حالتها تماما ، كأننى أعيش معها تجربة واحدة هى مهتمة بى منصرفة عنى ، تهفو لمجلسى وتخاف منه ، ترغب فى محادثتى وتوثيق علاقتها بى ولكنها تخشى كبريائى وسخريتى من عواطفها ووجدت أفكارى فى تلك الايام تحـــوم فى أشياء نفضت منها يدى منذ عدة سنوات •

انها تمتلك كل ما أطلبه من المرأة وهى تحبنى بلا شك ولكنها صغيرة وحب البنت فى سنها شىء معلق فى الهواء ليس له جذور، وخبراتى علمتنى ان البنت فى سنها لا تحب انسانا أبدا انها تحب كائنا غير موجود ••• ومسكين ذلك الذى تختاره لتلبسه ثوب الفارس فى خيالها اذ أنها ما ان ترتبط به ويجمعهما سقف واحد ، حتى يبدو لها على حقيقته فيتهشم التمثال الجميل ولا تبقى لها سوى خيبة أمل وحزن مقيم •

وانى لن أكون أبدا تجربتها البـــكر ، ان الطريق لا تزال مفتوحة أمامى ، استطيع أن أتراجع واهرب كعادتى •• ، وهكذا أبعدت نفسى وقفلت كل طريق يمكن أن يوصلنى لمعرفة شىء

عنها ، وفى خلال هذه الفترة أتمت احسان دراستها الثانوية ، وقبعت فى البيت كمثيلاتها من بنات هذا الجيل لم تفتر العلاقة بينى وبين والدها بل انها قطعت شوطا بعيدا جعلته يتحدث الى كأبن له ، ويشركنى فى شئونه ولا يحس حرجا فى ذلك ، واذكر أنه ذات يوم قال لى وفى صداقة عميقـــة ، ان رجلا ذا مركز محترم تقدم لابنته ورأى أن يترك لزوجته مهمة تبليغ البنت الامر ولكن زوجته أتت بشىء لم يكن يتوقعه لقد رفضت ابنته هذا الانسان ... بل انها تفكر فى الجلوس لامتحان الشهادة مرة أخرى انها تفكر فى مواصلة التعليم .

وكنت أعلم يوم ذاك ان احسان لا ترغب فى الزواج ، ليست هناك امرأة ترفض الاقتران برجل تحبه من أجل مواصلة التعليم ولكنها طريقة مهذبة للرفض اتخذتها البنات المتعلمات فى هـــذه الايـــام .

ومضى عـــام آخر جلســـت فيه احسان لامتحان الشهـــادة مرة أخرى ولكنها لم توفق ووجدت الوقت مناســـبا لتحقيق أمنية قديمة ... اننى اعرف معرفة جيدة أى مغامرة أنا مقدم عليها ومع ذلك كانت فرحتى عظيمة اذ تم كل شىء فى سهولة ويسر ، وانتقلت احسان لبيتى واصبـــحت لى زوجة بعد أن هربت كثيرا .

الشىء الذى يؤلمنى الآن . أن زوجتى تضيـــق بى وتظهر سخطها على أسلوب حياتنا ، ولا تجد فرصة تضيعها دون أن

تسخر منى وتسفه أفكارى ، وما يؤلمنـــى كثيرا أن تعلقى بها يزداد يوما عن آخر ••• لقد عرفتها جيدا ••• عرفت ما فيها من قوة وضعف وأحببتها ولكنها أحبتنى لأنها لم تعرف عنى شيئا ، لقد عشت ما كنت اخاف منه ، واصبحت أحد التماثيل التى تهشمت ••• صدقنى ••• انه لا يوجد أتعس من رجل يحب امرأة ولا يتأكد من حقيقة عواطفها نحوه ••• لم أعد أؤمن بفلسفتى القديمة رغم قربها اليوم من واقعـــى •

عبارة واحدة أتذكرها لصديق قديم ، وأرددها فى خوف مما عسى أن تأتى به الايـــام •

(لا تجعلنا نحب من لا يحبوننا حتى لا تشقنا بالحب مرتين يا الهـــى)

الضعين ••• ابوبكر خالد

متى يعــود هـارون؟

حليمة تجلس دائما ، منذ سنوات طوال اليوم أمام باب المدرسة الاولية فى ذلك الحى من أحيــاء أم درمان ، قصيرة ممتلئة ، جبينها اتسع بمرو الايام وصار يحتل مواقع الشعر الذى تراجع وتقلص فى شعيرات قصيرة ، بشرتها سوداء وعيناها غائرتان وأنفها أفطس وشفتاها غليظتان ، تنفرجان من وقت لآخر عن أسنان حمراء متفرقة • وهى تجلس دائما على مقعدها القصير وتفرش أمامها قطع الحلوى والفــطائر وأقراص الطعميــة ، وبالقرب من حليمة يجلس عبد الفراج القرفصاء ، وهو يضع أمامه أعوادا من قصب السكر ، وهو رجل عجوز ، ينبىء تهدل وجهه عن ماضى عامر ، وهو ضعيف النظر قليل الكلام ، يتبادل مع حليمة كلمات محسوبة طوال اليوم ••• وقد اعتاد أن يغفو فى اللحظات التى يدخل فيها التلاميذ فصولهم • أما حليمه فهى تنظر لعبد الفراج فى أسف وتتنهد فى حسرة واضحة ، لو فقط عرفت هذا المخلوق البسيط قبل عدة سنوات ••• ولكنه الآن لا يصلح للقيام بأموره ، فضلا عن زوجة وبيت ••

وهى فى اللحظات الاولى من الصباح ، تهتم كثيرا بمتابعة فتيات المدارس ، اللائى يخطرن فى طريقهن للمدرسة الثانوية ••• وهى تحفظ وجوههن ، وأحيانا ثياب البعض منهن •••

وفى شغف لا مثيل له تتابع شعور البنات ، وما تحدثه البنـــات كل صباح من أشكال وألوان لشعورهن من عقص وارسال ، وكانت عندما يمتلىء الزقـــاق بأسراب الفتيات ترفـــع أنفها تتصيد نفحات العطر الحلوة التى تنفثها البنات • وكانت عندما تلمح شيئا مثيرا •• تتمالك نفسها ريثما تبتـــعد البنت ، ثم تطلق لنفسها العنان فى ضحكة يهتز لها جسمها كله بما فيه من شعيرات قصار غلاظ يتحركن فى مؤخرة الرأس كالأصابع •

وعندما تختفى أسراب الفتيات وتصعد الشمس ••• تبدأ حليمه فى تحسس بضاعتها وهى فى هذه اللحظة لا تهتم لشىء قدر اهتمامهـــا باللحظة التى يتدفـــق فيها الصبية الصغـــار ويحكمون حلقتهم حولها وأصواتهم الرفيعة تتصايح :

— طعمية يا حليمة •• فطيرة يا حليمة •• حلاوة يا حليمة •••

وكانت فى هذه اللحظة تتصنع الحزم ، وتعقد ما بين حاجبيها وتظل تبيع لهذا وذاك فى سرعة تعودتها من خبرتها الطولية ، وهى من وقت لآخر تنهر هذا وتحذر غيره ، وقد تقرص أحدهم لو لمحته يمد يده ليأخذ شيئا قبل أن يدفع ثمنه •

شىء واحد كانت تضيق به حليمـــة حقا ، وهـــو أن ابنتها المرضة مريم ، درجت على أن تترك معها ابنها الصغير ابراهيم فى بعض الايام • ورغم أن الطفل لم يتجاوز السادسة الا أنه أكول ، وهى تحبه ما فى ذلك شك ، وتحب أمه أكثر منه ، الا أنها تضيق بنهمه أكثر من أى شىء ، فقد اعتاد أن يتناول شيئا عند حضوره ، واعتاد ألوقـــوف مع الصبية الصـــغار عندما

يتحلقون حولها •• وعندما تبتلع الفصول التلاميذ يحسب أن ما تبقى حق خاص به لا ينافسه فيه منافس ••• وكأن فى هذه اللحظة يربض بالقرب منها ، وفى عينيه الواسعتين تجول نظرة ذليلة ، يمسح بها من وقت لآخر بضاعتها ••• وكانت حليمه تنتظر لما يتبقى فى حسرة وقلق ، فأن لم يفرغ منه ابراهيم هنا ، فسيلحق به فى البيت ، وهى تتحمل فى غيظ مكتوم هذا الغلام الشره كأنه قدر مكتوب • وظهرت فى طرف الزقاق ابنتها مريم ، تمسك ابراهيم من يده والغلام يتواثب فى فرحة للقاء حليمه •• وبدت مريم فى بشرتها السمراء الداكنة وثوبها الابيض فى خفة بنات المدارس ، ورغم أن شعرها خشن ، الا أنها بمهارة الانثى استطاعت أن تجعل منه شيئا مقبولا لحد ما •

وأبصرت حليمه شابا يدخل الزقاق خلف ابنتها ، كأنه يتحين فرصة ليتحدث اليها ، فتحفزت فى جلستها ، وبدأ الشر يبرق فى عينيها الغائرتين ، كهرة أوشكت أن تنقض على فريسة سهلة المنال ••• وعندما رأت الشاب يمضى فى طريقه ولا يلتفت الى مريم أحست كأن الشاب أهانها بوجه ما ، لماذا لم يلتفت اليها ؟ •••• لو كانت مريم احدى الاخريات اللائى يخطرن فى الصباح للمدارس •• أكان يتجاهلها أيضا ؟ •• لو كانت بشرتها خمرية وشعرها متموجا وجسمها ممتلئا •• أكان يتجاهلها لا يلتفت اليها ؟ واقترب منها الشاب قبل مريم فحدجته بلا شعور فى حنق ظاهر ، وعندما مضى مصمصت شفتيها وبصقت ••• واقتربت مريم وحليمه تفحص مشيتها ، وتمعن النظر فى عودها اليابس وبدنها المهزول ، فمريم بعد طلاقها لم تستطع

العثور على زوج ... وهي تفقد كل يوم شيئا من سحـرها وجمالها القديـم .

وفى اللحظة التى كانت مريم تقترب فيها من حليمه ، كانت (تتابع الراعى) حليمه ترفع صدرها وتمـط عنقها وهى تسند جسمها بيدها على الارض ... كانت تتابع الراعى الذى وقف أمام أحد الابواب منذ فترة . وهو شاب فى عنفـوان العمر ، طويل رفيع ، عارى الرأس ... قميصه الكبير مشرب ببقـع الزيت ... وكان ينتعل (اسفنجه) ويطوح عصاه الملتوية .. وكان لا يزال واقفا رغم أن العنزة قد خرجت وانضـمت الى صاحباتها .. الا أنه ظل واقفا يمشط بأصابعه ، ذقنه الحليقة ... والباب شبه موارب وهو يختلس نظرات للداخل وفجـأة انفتح الباب ودخل الراعى ثم ارتد الباب خلفه ... كأن شيئا لم يحدث .. وعندما وصلت مريم ووقفت ، شعرت بأن أمها مشغولة بشىء ما ، فقالت لها :

ــ لا تتركى ابراهيم يبعد عنـك ...

ــ . . . .

وفجأة نهضت حليمه وهى تقول لمريم :

ــ انتظرى سأعود حالا ...

وأخذت طريقها الى ذلك المنزل ، كانت تبدو مهمومة تماما ، كأن أمرا خطيرا حـدث فى منطقتها بلا اذن منـها أو مراعاة لشعورها ، كانت فى مشيتها تشق التراب بأقدامها وتطلق خلفها سحابة كثيفة من الغبار واقتربت من الباب وطرقته فى عصبية

واضحة وانفتح الباب أسرع مما قدرت ، وكان الراعى يذبح فراخا ، والخادم الصغير يحمل قطعة من الصابون وينظر فى فزع للفراخ وهى تترنح ••• وطلبت حليمه كوبا من الماء شربته عن آخره ••• وعادت أدراجهـا ، وهى مضطربة وغاضبة ، وابصرت تيسا له مثل لحية عبد الفراج يقوم بغزل مفضـوح مع عنز تحاول الافلات منه ، فأمسكت عودا وصارت تطـارده ••• وجاءت أخيرا وهى تلهث •••• ووجدت ابراهيم قد ملأ فمه بقطة من الفطائر ، وهو يحتال احتيالا ليتخلص منها قبل وصولها ، فرمقته فى تأنيب خفف من حدته وجود أمه ثم التفتت الى مريم :

ــ دنيا عجيبة •• كيف تقبـل امرأة حرة أن يدخل رجـل منزلها فى غيبة زوجها ••• مهما كانت الحجة ؟ ••• فالرجل رجل على كل حـال •

ــ قلت لك لا تتركى ابراهيم يبتعد • فى البلد اليوم مظاهرة•

ــ مظاهـرة •••

ــ نعـم •

ــ ماذا يريد هؤلاء النـاس

ــ يريدون الديمقراطيـة

وابتسمت حليمه بسمة بشعة وأخرجت من تحت صدرها علبة لفائفها تناولت منها واحدة وضعتها بين أسنانها ، ثم قالت بعد فترة من الصمـت :

ــ قلت يا مريم يريدون الدمقلاطية •• ما معنى الدمقلاطية ؟

ـ الديمقراطية ••• الديمقراطيـــة

وحكت مريم رأسها ••• ثم قالت :

ـ الديمقراطية هى عودة الديمقراطية •

واتسعت ابتسامة حليمـــة وهى تقرقر

ـ حكاية عجيبة •• الديمقلاتية هذه •• هل هى امرأة مثل ملكة الخواجات التى زارت البلد ؟

وأحست مريم أنها تفهم أشياء كثيرة ، ولكنها لا تستطيع أن تنقلها لأمها ، فضاقت من أسئلتها ، ومن جهلها أيضا ، وقالت لنفسها ، ان حليمة لن تفهم شيئا من هذا ، مهما حاولت ، واكتفت بأن أبدت حركة تدل على رغبتها فى الذهاب ، أما حليمة فقد نسيت الامر كله وقالت منتقلة لشىء آخر :

ـ متى يعود هارون ؟

ـ لا أعلم •• وليست لى رغبة فى أن أعلم ••

ـ لو كنت عاقلة لعرفت كل شىء عنه •

ـ لماذا ؟

ـ هو والد ابنك • ثم أنه أصيب فى الجنوب •

ـ وماذا يهمنى من هذا ؟

ـ هارون سيعود اليك •• الجيش سوف يستغنى عنه •

ـ وسيكون عاطلا •

ــ وعندما تزوجك كان عاطلا .. هل تذكرين هذا ؟
ــ لماذا تهتمين بأمر عودته دائما ؟
ــ يخيل الى أنه سيعود لك مرة أخرى .. مهما طال الزمن
ــ ولكننى لن أقبلــه .

وأشاحت مريم بوجهها بعد أن خنقتها عبرة ، وامتلأت عيناها
ــ هذا كلام ... كلام فقط يا مريم .. انه رغم كل شىء رجل ..

وأشاحت مريم بوجهها بعد أن خنقتها عبرة وامتلأت عيناها بالدموع ، وتذكرت لحظتها دكتور هاشم ، وكيف أمسك بيدها ، وكيف أنها نسيت كفها عندما أخذ خدر حبيب يشيع فى كيانهــا كله ، وكيف انها بكت ليلة بأكملها عندما رأته فى المساء تصحبه فتاة جميلة فى السينما . ونظرت لابراهيم ، كان وجهه محتقنا ، وتقاطيعــه غير متناسقــة ولونه أسود غامق كأنه مغســول بالقطران ، كأنه قطعة من والده ... وكانت تحبه أكثر من أى شىء ... حتى صوته الذى لا يشبه صوت الاطفال ... كانت تستشعر فيه رقة وعذوبة وتظل تنظر اليه ، كأنها توشك أن تلتهمه من فرط حبها لــه .

ويفتح باب قريب يخرج منه شاب أنيق .. تمس أقدامه الارض مسا خفيفا وحليمة تريح ابراهيم بيدها ، وتحدق فى الشاب ، وعندما يبتعد ، تصفق فى عجب وتمصمص شفتيهــا وتبصق .. ومريم تتابعه بنظرة طويلة .. وجهها يتغير ويشحب كأنها خجلة من شىء مــا .

وتتحرك مريم وتتابعها حليمة بنظراتها ... ومريم تتصنع ليونة فى مشيتها وتحرك أردافها العجفاء فى احساس عميــق بأنوثتها ... كل هذا حدث وعبد الفراج مستســلم لاغفاءة طويلة .. وعندما يرفع الهــواء رداءه ، تلعن حليمــة بصوت مسموع كل الرجــال ... غير انها تصب لعنتها بوجه خاص على الزمن وما يجلبه من خرف ... وينتبه عبد الفراج ويفتح عينا واحدة .. ويعتدل فى جلسته وهو يجذب طرف جلبابــه ليغطى فخذه العارى ... ويغمض عينه ويفتح الاخرى وهو يقول لحليمــه :

ــ متى يعود هارون ؟

وتتنهد حليمة بصوت ... ولكنهــا لا تقــول شيئــا ... ويهتم ابراهيم بالسؤال ، ولعله حسب أن جدته لم تسمعــه فيقترب منها ويمسك وجهها بيديه ويقول فى براءة :

ــ قال لك متى يعود هارون ؟

وعلى حين فجأة سمعت حليمة صياحا .. ثم رأت جموعا من الناس تملأ الشارع الكبير على سعته ، وغطت بضاعتها بقطعة من القماش ، وهى تنظر فى حيرة لتلاميذ المدرسة الذين وقفوا على نوافذ الفصول . وظلت تنظر بادىء الامر الــى حركة الناس فى فضول ظاهر ... وعندما اشتدت الحركة تحول الاستطلاع فى عينيها الى قلق .. ثم بدت نظراتها جامدة ... ثم امتلأت بغيظ تحول الى حسرة عندما ابتلع الزحام التلاميذ .. ولحظتها لم تفكر فى الناس أو الى أين يذهــبون .. كان

ذهنها مشغولا بأمر واحد ••• أين تذهب بضاعتها ان لم يعد التلاميذ ؟ ••• وفى هذه اللحظة وبلا شعور تذكرت ابراهيم •• والتفتت اليه ولم تجده فى مكانه كما تعودت أن تجده دائما •• وتأكدت أنه يقف فى مكان قريب ينتظر بفارغ الصبر انتهاء هذه الزوبعة ليهجم عليها ، وتزحزحت فى مقعدها فى ملل وسأم ، وهى تمد بصرها بحثا عن شىء ، وفى لحظات متباعدة ، كانت تعثر على واحد منهم ينبـــش الارض تحت القوم بأقدامـه الصغيرة التى تشبه مخالب الكتكوت ، وتوشك حليمه ان تطلق صرخة آمرة تطلب اليه العودة للمدرسة •• وتظل ترمق الناس فيما يشبه اليأس •• ورغم أنها كانت خائفه ومشفقه •• الا أنها لم تفقد الامل بل كانت تتشبث به وتلعن فى نفسها كل من كانت له يد فى هذه الزوبعة التى تسببت فى كل هذا القلق •••

وفرقعت قنابل ••• اضطربت الارجل ••• وتداخل الناس ••• كل يلتمس طريق النجاة على طريقته الخاصة ••• الدخان والغبـــار يختلطـــان فى ســـحـــابة انتشرت فوق الرؤوس ••• العيون التهبت وامتلأت بالدموع •

حليمة أصابها فزع حقيقى ، وهى تلم أطراف ثوبها تغطــى بها وجهها وتتحسس عينيها بأصابعها الخشنة •

وعلى حين فجأة امتلأ الزقاق بأعداد هائلة من الناس تركض ••• وتلصق حليمة ظهرها على الحائط •• ولكنها لا تستطيع أن تتحاشى الناس ••• وتجد نفسها منطرحة على الارض •• وفى أحضانها عدد من الصبية •• يولولون وينادون أمهاتهم •

وعندما تختفى الاقدام تنقطع الحركة ... وتعتدل حليمة فى جلستـــها ، وتجلس الصغار الى جوارها ، وهى تنتظر لعبد الفراج فى غيظ ، فقد كان عبد الفراج آمنا ... فقد اندس فى فجوة الباب ... ولبث فى جلسته القديمة لم يطرأ عليه شىء ، كل ما فى الامر أنه وضع أعواد قصب السكر فى حجره وأمسك بها جيدا ... ثم استسلم للنوم مرة أخرى ... وتسمع حليمة أصواتا رفيعة تقول :

ــ حليمة يا حليمة ، يا أمنا القديمـــة .

[illegible] بعض التلاميذ يجلســـون على سور المدرسة وبينهم ابراهيم وعندما يبصرونها تتنلز اليهم يتعالى صياحهم :

ــ الشعب .. الشعب .. عاش الشعب ...

وتمتلىء نفسها بمعانى مبهمة وهى تراهم يرفعون فروع النيم الخضراء ويهزونها فى الهواء ويرددون :

ــ حليمة يا حليمة يا أمنا القديمة ... قولى الشعب الشعب

ويهبط ابراهيم .. ويسرع اليها وهو يهز فرع النيم ويصيح .... ولكنه فجأة يصمت وينظر فى خيـبـة أمل عظيمة لقطـع الحلوى والفطائر التى أكلتها الاقدام .

وتفر دمعة من حليمة ... وتلم ثوبها وتنهض ... وتحس بالألم كلما حاولت أن تعتمد على رجلها اليسرى .. وتحاول مرة

أخرى ، ولكن توازنها يختل فجأة ، وتسقط وهى تطلق آهة طويلة •• ويفتح عبد الفراج عينيه وترتعش أجفانه لثانية ثم يقول :

ـ حليمة ما ذا بك ؟

وعندما يتمكن عبد الفراج من النهوض •• يجد الصبية الصغار قد هبطوا من الحائط فى خفة الطير •• وتحلقوا حولها •• وحليمة تشبه آلة كبيرة أصابها العطب فجأة فهدأت وسكنت •• كانت منطرحة على الأرض تماما •• عيناها مفتوحتان وشفتاها تقولان شيئا لا يسمع ، وبدنها ينز عرقا •• وهى تشبه المخنوق تحاول أن تتنفس بفمها الذى ظل مفتوحا •

وحملت أخيرا الى بيتها •• وعندما أفاقت وجدت مريم تجلس قريبة منها •• الغرفة على صغرها تحتوى على كل ما تملكان •• ورغم هذا تبدو غرفة واسعة •• عندما تحركت حليمة •• انتصبت مريم واقفة واقتربت تقول :

ـ أمى •••

ـ •••

ـ كيف حالك الآن ؟

ـ بخير •• أين ابراهيم ؟

ـ يلعب مع الاولاد ••

ـ رفعت حليمه صدرها وتحسست ساقها الايسر وحركت ساقها ، وقبضتها واطلقتها •• ثم التفتت الى مريم قائلة :

ـ الحمد لله ••

ونهضت مريم الى جانب من الغرفة •• ومكثت لحظة ، عادت بعدها تحمل آكلا وهى تقول :

ـ انتظرتك بالاكل

ـ كيف استطيع الاكل وفلوسى قد ضاعت يا مريم ؟

نعم كل شيء ضاع •• رأس مالى ضاع يا مريم •• الحلوى كالفطائر ضاعت •. القروش التى كنت أضعها فى طرف الثوب هى الاخرى ضاعت •• اصبحت لا أملك شيئا ••

ـ سأعطيك جنيها فى أول الشهر •

ورمقت حليمة مريم فى حنان ولكنها لم تصدق شيــئا مما قالت ، وعندما أقسمت مريم انطلق وجه حليمة واسترد عافيته •• ونهضت وصارت تتجول فى الشرفة وهى تحاكى كل ما حدث فى الصباح •• ثم التفتت لمريم وسألتها :

ـ هل تسمعين شيئا ؟

ـ عن أى شيء تتحدثين ؟

ـ اننى اسمع صوت والدة هارون •• ومدت حليمــة يدها لثوبها المعلق على الحبل والتقطته واحكمته حول جسمها وخرجت مسرعة •• وعادت بعد قليل تقول :

ـ الصبيان يضحكون دائما على العجوز •• قالوا لهـا •• ولدك مــات •

وأطلت مريم برأسها خارج الغرفة •• فأبصرت والدة هارون العمياء فى جلستها الدائمة أمام غرفتها •• وكانت ترفع صوتها

تبكى ابنها •• بعد أن سمعت من الصبيان أن هارون قد قتل فى الجنوب •

وعادت مريم تهز رأسها وفى النفس أشياء •• وعندما رقدت تذكرت دكتور هاشم وتذكرت كيف انها تركت يدها عندما أمسك بها ، وتذكرت وجهه الحليق المصقول وأسنانه البيضاء المنتظمة وعربته الفاخرة • •

وتذكرت هارون ولم تقف عنده •• واختلست نظرة لحليمة •• وتذكرت الجنيه الذى تحلم به فى أول الشهر الذى اقترب••

وعندما هبط المساء •• خرجت لعملها فى المستشفى •• وهبطت من العربة بالقرب من ساعة البلدية •• ووقفت فترة طويلة وهى تلمح عربة فاخرة تدور فى الشارع وهى تصعده جيئة وذهابا •• كأنها تبحث عن شىء ضل طريقه •

وعندما يئست العربة •• واختفت ، أخذت طريقها فى خوف واشفاق حتى وقفت أمام المستشفى •• ثم انحدرت الى ركنه الشرقى حيث وجدت ضالتها •• كانت فتاة صغيرة تفرش أمامها بضاعة تعودت بيعها للنساء الزائرات •• وتلفتت مريم ثم جلست بالقرب من الفتاة وتبادلت معها حديثا قصيرا وعندما نهضت تودع الفتاة ، قالت فى خجل اضطربت معه كلماتها :

ــ متى يعود هارون •••• ؟؟؟؟

ليلة في المدينة

الكثيرون الذين بدأوا الرحلة معه وكان يعرفهم ويتبادل معهم الاحاديث هبطوا فى طرف المدينة .. لم يبق على صندوق اللورى سوى ثلاث نسوة وشيخ ودسليمان يضم جلبابه ويسعل ويتحسس من وقت لآخر شنطة الحديد الصغيرة التى حشر فيها كل ملابسه .. لحظتها فقط فكر .. ماذا يفعل حين يصل ، هل وصل جوابه لابراهيم ... ابراهيم هو الذى حرك شوقه لرؤية المدينة ، .. هو الذى أغراه وحبب اليه هجرة البلد والبحث عن الرزق فى المدينة العجيبة .

كان ابراهيم فى زياراته للبلد يثير خياله بقصصه العجيبة عن أمدرمان وبنات أمدرمان والحياة العجيبة التى يعيشها الناس فى المدينة وكيف أن النساء يتجولن فى الشارع بفساتينهن القصيرة وثيابهن الشفافة ونظراتهن الوقحة ..... (.. الزول يا ود سليمان الجاى من بره ... النسوان يقعن فوقو ساكت ... ها زول أكان جيت هناك الا يمسكنك ساكت .. هن عاد نسوان نصاح .. ما الواحدة زى المنقة .. ها زول الما شاف ديلك ما شاف حاجة .. والقروش البتشقا هناك وراها هناك ..... ما هناك مكومة فى السهلة ... الخشاش املا شبكتو ... والله الحياة هناك سهلة بلحيل ...) .

كان ابراهيم يقول له هذا كثيرا فى زياراته للبلد ... ولكن ودسليمان بقى مغروسا فى قريته مثل نخلة بت زروق .. القرية تتكمش كل عام .. والهدام يغرز أسنانه كل سنة فى قطعة جديدة من أرضها المزروعة .. والرجال يسافرون دائما والنساء وشجر النخيل يستقبلن أيام الخصوبة بحواس متفتحة ويحبلن ويطرحن ثمرهن فى موسم لا يتغير ... والصغار يشبون سريعا ويلحقون آباءهم فى المدن .. والتمر يدخل الجوالات ويرتحل أيضا .. ودسلمان من القلائل الذين يحرسون القرية .. كان يقوم بشئون الكثيرين .. يفك خطوط الجوابات الرديئة .. ويكتب رسائل الزوجات ويقبض الحوالات ويسهر مع مصباحه الزيتى يراجع حساباته ... كانت هذه حياته حتى جاء ود عبد الدائم وبنى له حانوتا بالطوب الاحمر وجلب له الرفوف والزجاج وملأه بالبضائع .. ولوت النسوة والفتيات أعناقهن للحانوت الجديد الذى تضيئه رتاين ثلاث . وغير هذا فقد كان ود عبد الدائم وكيلا لاحد الاحزاب .. فظل طوال وقته يزرع محبة حزبه فى نفوس المواطنين .. فهو دائما أسرع المعزين فى المآتم وأول المهنئين فى الأفراح .. وهو دائما يحمل شيئا يدفعه ويلمس به قلوب الناس ... بيته مفتوح ... ومأدبته عامرة وصوته مسموع .. وعبست الايام لودسليمان وادارت له ظهرها .. وأصبح يبقى الساعات ولا يطرق حانوته أحد .. وكان كثيرا ما يترك نفسه لهذا الغيظ الذى أصبح ينخر فى عظامه ...

فى لحظات متفرقة يتذكر أيامه السوالف وحشد النسـوة والصبايا أمام حانوته ... فيلعن فى نفسه ود نور الدائم مرة ويلعن المدن الخبيثة ألف مرة .. فهى التى تأكل كل شىء وترمى لهم بالمصائب ... فود نور الدائم لو لم يخرج للمدينة .. لما استطاع أن يفعل به كل هذا ... وتذكر أيضا ابراهيم ود اريس وقصصه العجيبة ..

ـ انت نازل وين يا أخينـا ؟

فوجىء ود سليمان بالسؤال ولكنه أسرع قائلا ..

ـ أنا باقى صاحبى ابراهيم منتظرنى .. ان شاء الله جوابى يكون وصلو .

ـ يعنى انت نازل السـوق ؟

السؤال مرة أخرى مربك .. هو لا يدرى على وجه التحديد المكان الذى يحتمل أن ينتظره فيه ابراهيم .. يندفع قائلا :

ـ أنا نازل فى الموقف

ـ موقف شنو يا زول .. قول داير تنـزل وين .. احنـا بنوصـلك .

ـ بدور السـوق

ـ ياتو حته فى السوق ؟

ـ عاد يا ولدى الخبرنى شنـو

فجأة صاح ود سليمان :

ـ محل عربيات دنقلا يا زول

الليل يلف المدينة .. والمصابيح الكثيرة تبدو عاجزة عن طرد الظلام الذى أحكم غطاءه على المدينـــة ... العربة تشـــق الطرقات وود سليمان يمعن النظر عساه يبصر ابراهيم .. أو أحد أبناء القرية الكثيرين الذين سبقوه لامدرمان .. الشوارع خالية والبيوت التى تقـــوم على الجانبين تشبه بيوت دنقـــلا العرضى ... ولكن الشـــارع الطويل لا يبصره له نهايـــة ... العربة تنحدر لشارع آخر يمتد بلا نهاية أيضا ... فجأة تقف العربة ويصيح المساعد :

ـ انزل هنا يا زول .

ويتناول ود سليمان شنطة الحديد وينقد المساعد أجرته .. وتتحرك العربة وتختفـــى ويقف ود سليمان ينظر فى حيرة ... الشارع الذى هبط فيه تضيئه فوانيس خافتة متباعدة .. وعلى أحد جوانبه أبصر صفا طويلا من العناقريب المتلاصقة .. ورأى أناسا ينامون على بعض العناقريب .

ـ داير شنو يا زول ؟

ـ أنا ضيف جيت بعربات دنقلا .

ـ أمش أرقد ليك فى عنقريب والصباح تدفع ريال

لهجته الجافة لم تتح لود سليمان مجالا ليسأله عن أشيـــاء تدور برأسه .

وفى الصباح استيقظ ود سليمان على أبواق السيارات ... وعندما نهض رأى رجلا يجمع العناقريب ويوقظ بقية النائمين .. وفى فترة قصيرة اختفت العنـــاقريب ..... ووجد نفسه

يحمل حقيبته ويقترب من طرف الشارع الكبير ولكنه وقف خائفا •• فالشارع يشبه بحرا هائجا •• العربات مختلفة الاحجام والاشكال والدراجات وعربات الكارو كلها تتسابق كموجات يدفع بعضها بعضا •• ولحظته أدرك أن رجله لو انزلقت فى هذا الشارع وضاع وسط هذا الزحام فأنه لن يصل أبدا لابراهيم •• ولذا آثر أن يعود للعربات •• ووقف يبحث بعينيه عن لورى يعرفه ولما يئس التفت لشاب رقد تحت أحد لوارى دنقلا :

ـ يا أخينا اللوارى دى ماشه وين ؟

ـ يعنى ماشين فرنسا •• ما كل زول عارف دى عربيات دنقلا

ـ يا اخوى ما بتعرف ابراهيم ود الريس •• آهلو من أرقو •• علا ساكن معانا فى حلة الشيخ •

ـ يا زول انت مقابلنى من الصباح مالك •• أصلو قالوا ليك أنا شيخ حارة بتاع السودان ؟

ـ هى يا اخوى مو سعال • أكان ما عارف أنا جابرك •

يتدخل صوت خشن :

ـ بتسأل عن منو يا اخينا ؟

يلتفت ود سليمان لصاحب الصوت •• يطمئن بعض الشىء فمحدثه رجل عاقل

ـ يا خوى بسعل عن ابراهيم ود الريس •• باقى هو من ناس أرقو علا جا امدرمان وشغال ليهو مع خواجه •

ـــ يا خوى زولك دا ... ما أظنك تلقاهو بالطريقة دى .. ما عارف عنوانو ؟

ـــ والله عنوانو عندى ءلانسيتو فى البلد .. حسه باقى ليك ما بلقاهـــو ؟

هز الرجل رأسه متأسفا ومضى من غير أن يقول شيئا .

وأحس ود سليمان بالغضب (.. الراجل مو فوقو فايدة .. كيفن يعنى يشوف حالتى دى ويخلينى .. أفو ... والله عاد ما راجـــل ...)

وحاول أن يستوقف الناس ليسألهم .. بعضهم كان يمضى فى طريقه من غير أن يلتفت اليه .. والبعض منهم كان يهز رأسه ولا يقول شيئا .. الذين يستمعون اليه .. يسخرون منه .. عرباتهم ، قلوبهم صماء ، وحركتهم مرسومة كأنهم يســيرون بالبنزين أيضا .

وعندما مضت ســاعات من الليل بدأت الحوانيــت تغلق أبوابها والانوار التى كانت تخطف الابصار اختفــت فى جوف الحوانيت التى نامــت وهدأت الحـركة ثم انشطعــت ووقف ودسليمان مرة أخرى ينظر لصف العناقريب .. وفى هذه المرة لم يسأل انسانا .. تقدم لعنقريب بعيد واستلقى عليه .. أكثر الاشياء التى أزعجته .. هذا الفتور الذى استقبلته به المدينة .. وبدأ حوارا مع نفسه .. هل يبقى رغم ما لقيه حتى الآن ..

وان استقر رأيه على البقاء •• كيف يتفاهم مع هؤلاء الناس •• وهل فى مقدوره أن ينافس فى رزقه هذه الآلات الصماء •

– الماشى دنقلا يقوم يا جماعه •• احنا قايمين حسه •

قالها مساعد اللورى وهو يطوف بالراقدين •• وفجأة قفز ود سليمان وحمل حقيبته ووضعها فى صندوق اللورى وصعد •• لم يتخذ قرارا بالعودة •• لم يفكر اطلاقا فى هذا •• ولكنه بلا شعور قفز لصندوق اللورى •• شىء واحد كان يستولى على اهتمامه فى تلك اللحظة •• ترى كيف سيجد حلة الشيخ ••

كلاب القرية

عندما هبطت تلك القرية النائيـــة كنت أسمع الكثير من القصص ، عن فتياتها وعن ندرة الرجال • وبعد وصولى كنت على وشك أن أكذب كل ما سمعت ، فالمدرسة التى أعمل بهـا تحوم حولها أعداد من الفتيات الفقيرات العاطلات من الحسن • وهن يحملن صفائح الماء الى بيوتهن ووضح لى أن كل مـا سمعته ، قد لونه خيال الراوى وأكسبه خصوبة لا أساس لها من الواقع ، الى أن رأيت « مطر » كقطعة المانجــو الناضجة •• وكانت تقتحم مع الاخريات طرقات المدرسة فى طريقها للدونكى • كانت دائما تحمل صفيحتها وأراها على البعد وهى تعزف لحنا فى سيرها يطيش له صوابى ، فما أن تقترب حتى تحبس أنوثتها فى مشية عسكرية صارمة ، وتشمخ بأنفها فى كبرياء عجيب •• لا تلتفت أبدا ، ولا يستطيع انسان أن يثيرها بشىء ، والاخريات يتلفتن ويتضاحكن •• وبعضهن يلقى بالتحيـــة فى نزق ، وهى تسير وسطهن تحيط بها هالة ، يحسها كل من ينظر لها •••

وكان أحد الاصدقاء لا يدس ما تثيره فى نفسه ، ويقول وهو يتبعها بنظراته النهمة « لم تبق سوىأيام قلائل وتشح البئر ويعز الماء ويسهل صيد الفتيات » •• كان يقول ذلك ويرســل ضحكة ممطوطة • ومضت الايام وكنت أخرج فراشى أمام بيتى

والذى بنى بطريقة استطيع منه الاشراف على جميع الداخليات وكانت مدرستنا تشبه حدوة هائلة من الاسمنت غرزت فى تلك الرمال التى لم تألف مثل هذا اللون من البنيان ، فظلت على ظهر تلك الربوة تشد الاعين من المسافات البعيدة بلونها الابيض .. وكنت أجد لذة بالغة عندما يتحلق حولى الصغار يسألوننى عن الترام والنيل والسينما وألوان الحياة عند أهل البحر ... كانوا يدفنون ارجلهم الصغيرة فى الرمال ويتطاعون الى فى شغف ، وكنت أتحايل لارجاعهم للمذياع .. ولكنهم دائما كانوا يفضلون مجلسى هذا .. بل كثيرا ما كنت أجد بعضهم قد سرقه النوم .. وكانت هذه هى احدى المتاعب التى ترهقنى كثيرا فى تلك المدرسة ، اذ كان على دائما ان أتجول فى كل الاماكن القريبة من المدرسة لأتأكد أن بعض التلاميذ لم يهربوا من أسرتهم بعد جرس النوم الاخير فقد علمت من تجربتى أنهم جميعا يفضلون النوم على الرمال الجميلة خاصة فى الليالى المقمرة والتى حرموا منها يوم أن حضروا لهذه المبانى الضخمة الصماء .. التى يضيقون بجدرانها السميكة وأرضها الحجرية الصماء وفى هذه الليلة بدأ طلبتى يوجهون لى اسئلة لا تتعلق بالبحر وحياة أهله وقد بدأ هذه الاسئلة طالب كبير وشعرت بسحنته تتغير وبنبرة صوته ترتجف وهو يقول :

ـ يا استاذ أنا بشوف واحدة قمت ...

واكتفى بأن اشار باصبعه للمقابر التى تجاور المدرسه ، وعندما طال صمتى تبرع آخر واقسم بأنه كان ذاهبا ليشرب ،

فوجد شيطانا هناك فرجع خائفا وقـرأ « سـورة يس » حتى الصباح .

والحقيقة انني كنت اسمع قصصا كثيرة ومتنوعة ومن طلبة مختلفين ، وكنت اعلم ان عمال المدرسة يزرعون الخوف فى قلوب الاولاد بقصص الناس الذين ينهضون فى عتمة الليل من المقابر ليشربوا ماء الداخليات .. وكنت اعرف ان عمال المدرسـة يبررون اهمالهم فى حراسة الماء حيث تتدفق الابقار والماعز فى اواخر الليل لتشرب الماء ، حيث لا سور للمدرسة يحول دون دخولها ولا ابواب تمنع من الوصول لمكان المـاء . وكنا فى تلك الايام نعانى ضيقا عظيما فى الماء ، وكنت احضر الماء للمدرسة باذن خاص ، وكنا نبصر الاسر تحضر للبئر لمجـرد الشرب وبعضهم يحضرون من القرى المجاورة ويقضون ليلتهم حـول الدونكى ليتسنى لهم حمل الماء فى الصباح .

ــ يا استاذ ..

وتجاهلت هـذا السؤال .. كنت اتصنع عـدم الاهتمام بمراقبة قبة السماء ... والتى تبدو قريبة كأنها على وشك ان تتكفىء على الارض ..

ــ يا استاذ ..

وهذه المرة وجدت نفسى اضيق باسئلة الطلبة واطلب منهم الرجـوع لحلقة المذياع .. ورأيتهم ينتزعون ارجلهم مـن الرمال فى يأس ، ويأخذون طريقهم غير مقتنعين بتهربى الذى

لم يعرفوا له سببا • وكنت ارجو ان اخلو لنفسى كان على ان أوقف عبث العمال •• ولحظتى تلك سأقدم لطابتى دليلا ملموسا يغنيهم عـن كـل شرح • وعندما انطفأ نور المدرســه سكنت الداخليات لهدوء متقطع •• ثـم غرقت فى الصمت •• وجعلت اتقلب فى فراشي وقـد تلاشت رغبتى فى القراءة والنوم وزحف قمر القرية الهائل •• وسرعان ما دبت الحياة فى اطراف القرية، وبدأت الطبول تدق خافته بادىء الامر • وككل غريب تثقل عليه وطأة الذكرى جعلت احلم والنسائم تحمل لى اغنيات الاهالى الذين انبثوا جماعات ترقص وترفع عقائرها بأغنيات لا افهمها ولكنها تنفذ لاعماقى وامتدت يد صغيره توقظنى : ــ

يا استاذ ••

ورفعت رأسى لاجد تلميذا صغيرا يشير فى هلع الى اخوانه الذين تجمعوا بالقرب منه • وعرفت كل شيء • ونهضت وانا الآخر قد تأثرت بخوفهم •• ولكننى كنت اعلم انهم يضعون لى فى رؤوسهم صورة اسطورية ، واننى القادر على كل شيء ولو كان •• شيطانا نهض من المقابر فى اخريات الليل •• وتقدمتهم لمكان الماء بعد ان ارسلت بعضهم لايقاظ العمال والغفير ، وفى لحظات حضر العمـال ولكنهم تسمروا بعيـدا ، ورفضوا ان يتقدموا خطوة واحدة ، ووقف خلفهم التلاميذ وعيونهم يدور فيها تساؤل كبير • واخذت طريقى وانا احمل عصا وانا اعلم اننى سأجد بقرة او عنزا ، وقبل ان اضع رجلى داخل الحجرة مرق فى سرعة كلب هائل !! وهبط الامان على قلبى ، وتنفست

الصعداء والتفت ، فى سخرية للعمال ثم رفعت الفانوس الصغير فلمحت عنزا قد رفعت ارجلها الامامية وادخلت رأسها فى الزير وهى تشرب آمنه •• وعندما اقتربت من العنز وقفت فجأةوانا ابصر فتاة قد تجمعت فى ركن الحجرة وهى تحـاول ان تخفى جـرتها التى ملأتها بالمـــاء •• وعندما نهضت واقتربت منى تراجعت خائفا ، وقلبى اوشك ان يفلت منى ، فقد كانت مطر الصبية الحسناء التى كانت تشغل أحلامى لا تشــاركها فى ذلك واحدة من الكثيرات اللائى كن يحمن حولى •

وخرجت سريعا وخرجت خلفى مطر ، وفغر العمال افواههم فى دهشة بليدة وعلى حين فجأة اندفع الغفير وتناول جرة الماء من رأسها وهشمها على الارض وامســك بشعرها وانهال عليها ضربا ، وصرخت فيه غاضبا فكف فجأة وهو يعتذر لى ويؤكد انه ان لم يفعل ذلك فلن يقف سيل البنات الذى يتدفق آخـر الليل لسرقة الماء • اما مطر فقد هربت لا تلوى على شىء • ولم اكن فى حـــالة تسمح لى بالحديث • امــرت الطلبة بالرجـــوع لاسرتهم واخذت طريقى لفراشى وعندما عـــاد الصمت مـــرة أخرى • كانت تنهش صـــدرى انفعالات لا حـــد لها يملؤنى حنق على هذا الغفير وكنت ابصر بعين خيالى « مطر » صاحبة الانف الشامخ وهى تجرى كأنها صبى شقى تورط فى اثم كبير ثم المح شعرها المقبوض وعينيها الجميلتين وقد امتلأتا بالخوف •• وتقلبت فى فراشى •• وحاولت جهدى ان افرغ ما يدور فى رأسى لانام ولكن بلا جدوى •• وخيل الى اننى اسمع حركة ••

فرفعت رأسى فلم أر شـيئا •• ورقدت وبعـد فترة تأكدت ، هذه المرة ان ثمة شىء يتحرك وفى مكان جد قريب • فحبست انفاسى كأننى اخشى ان ادله على شىء ، ولبثت ارصد الحركة وهى تقترب وتتضـح ، الى ان تأكدت ان اقـداما تقف خلف رأسى فأغمضت عينى وخياشيمـى قد امتلأت برائحـة أنثى أوشكت أن تصعد فراشى ، وعند ذلك سمعت صوتا خافتا يقول :

هـا •• هـا ••

ولم اتحرك وسمعت الصوت يعود ها •• ياها ••

ورفعت رأسى •• وفجـأة قفـزت كالملدوغ •• ووجدتها امامى •••• مطر بلحمها وعظمها •• قطعة المانجو التى احالت حياتى لجحيم •• ووقفت مشدوها وانا اتلفت •• وقد ارهقنى خوف لم اعرفه قبل ذلك •• وصارت تظهـر صفيحة فارغة فى يدها ثم همست : ـ

ـ هـا ••

وأشارت لزير الماء المنتفخ القريب ، ولما لم تجد اعتراضا ، بدأت تصب الماء فى صفيحتـها فى خفة اللص وحرصه ، حتى لا يصدر صوتا ، وعندما فرغت من حمل الماء همست : ـ

ـ أها •• مع ••

واكملت كلمتها بأبتسامتها الساحرة وهى ترفع الصفيحة لرأسها وافلت طـرف ثوبها الـذى امسكته بأسنانها • فبرز صدرها بكنوزه الفاخرة •• وتناولت طرف الثوب وهى تضغطه

على صدرها وخرجت ووجدت نفسى أسير خلفها •• خاصة فان مشيتها العسكرية كـانت قـد لانت وتكسرت ، وعندما انتبهت لنفسى كانت المبانى البيضاء تسطع بعيدا تحت ضوء القمر •• وصرت شـبه منوم ومطـر تتأود وتهز اعطافها وصـوتها فى غنج حبيب •

وعندما هبت نسمات الصباح افترقنا •• وعدت وحيدا •• كأن وجهى محتقنا •• ينضح عرقا رغـم النسمات المنعشـه ، وشعرت بخوف وانا اسمع حركة كلاب تقترب •• ولـم تمض برهه حتى وجدت نفسى محاطا بالكلاب •• كأنها كانت تتشـم طريقى وتتبعنى •• واحكمت حلقتها حولى وصارت تتحرش بى وتتبحنى بطريقه زلزلت كيانى كله واطـارت ما تبقى لى مـن صواب ، وفى خوف اقتحمـت حصارهـا وانطلقـت فى سرعة هائلة •• حتى وصلت بيتى كالعاصفه واستيقظ الغفير عـلى جلبة الكلاب ، ولمحته يجول حول المبانى بحثا عن شىء • ولعل بصره وقـع علـى وأنـا أشـرب فجاءنى ليبـرهن على حـراستـه وقـال أنـه سـمـع خـطـوات اللـص المسرعة والـذىلم يستطع ان يفعل شيئا سوى الهرب ، لان كلاب القرية كعادتها شاركت فى مطاردة اللص •

الظرف الراهن

عندما هبط القاهرة طلبا للعلاج كانت القاهرة مدينة اخرى •• فالايام التى قضاها فى الطريق قد اجرت تحولا لم يخطر له على بال •• القاهرة النجفة الكبيرة •• يدخلها فيجدها مدينة آخرى •• مدينة تتحول مع بواكـــير الظلام الى غابة معتمه •• ووجد له غرفة على سطح عمارة قديمه فى طرف المدينه •• وظل هناك والمرض يشتد عليه ساعة بعد اخرى حقيقة •• كان فى استطاعته ان يذهب حسب اتفاقه السابق مع المستشفى لاجراء العملية •• ولكنه خجل •• أحس انـــه لا يستطيع •• فاليوم الذى ذهب فيه لذلك المستشفى الانيق الرابض فى ذلـــك الحى الفاخر الذى يسمونه الجزيرة •• فى ذلك اليوم دفـــع أجـــرة علاجه •• وحجز سريرا وخرج على أمـــل العودة فى الصباح حسب اتفاقه مع الطبيب •• ولكنه وهو ينتظر عربة اجره امام المستشفى جاءت عربة كبيرة من عربات الجيش ووثب منها عدد من الجنود صاروا ينقلون بعض الجرحى لداخل المستشفى •• وقد بهرته نقاط الدم التى كانت تلمع على اردية الجنود ولحظتها استقر رأيه على شىء •• ومن يومها لم يعد لهذا المستشفى •• وظل يخرج من حجرته كما يخرج سائر الناس فى الصباح •• ولكن عمله كان منحصرا فى تتبع مظاهر الحياة •• كان يجوب

المدينة بعربات الاجرة وفى المساء يتسلل لحجرته يتابع الاحداث على صفحات الجرائد •

وذات مساء ، كان يصعد درجات السلم الطـويل •• وفى الطابق الرابع •• وقف فى الظلام••واشعل عود ثقاب مرة أخرى وكان صدره يعلو وينخفض ونفسه يتتابع بدرجة أحس معها انه لا يستطيع ، كيفما انتظر أن يصعد درجة واحدة فضلا من ثلاثة طوابق • وفتح باب قريب • ولمح شبح امرأة تقف عـلى الباب •• وظلت ترقبه فترة ثم قالت

ـ ما تخش ترتاح يابنى

وانفتح الباب الموارب وأبصر نورا أخضر اندلق على ظهرها وتبين فى لمحة انها امرأة متوسطة العمر •• مربوعة •• عاطلة من الجمال •• رغم أن صوتها له جرس حلو وفيه غنج صبية حسناء ، وظل مترددا لحظات لم تطل •• وعندما دخل أسرعت واختارت مقعدا مريحا وجعلت تتفرس وجهه ثم قالت : ـ

ـ انت يابنى من السودان ؟

ـ ايـوه •

ـ وحضرتك فى زيارة ؟

ولعلها ذكرته باشياء كان يأمـل ان يفكر فيها فى هدوء •• ولكنه قال وهو يلحظ لهفتها على اجابته : ـ

ـ الحقيقة انا جاى عشان الظرف الراهن •

وامتعض من نفسه •• وكـره الكـذبه التى لايدرى كيف

افلتت منه بلا رغبة او سابق تحضير •• ولم تستطع ربة الدار اخفاء فرحها بانها تستقبل ثائرا من الثوار •• وصارت تتحدث اليه وهى تدخل وتخرج •• تضع اناء الشاى على الموقد •• تبحث عن السكر •• تغسل الاكواب ثم وهى تصب الشاى الساخن •• وعندما حسب ان الوقت قد حان لاستئذانه نهض ، ولكنها استبقته قائلة : —

— والنبى يابنى المحيرنى •• مش عارفه اعمل ايه •• عايزه اشترك ، اساهم فى صد العدوان •• لاكين •

ولمح دمعة تجول فى عينها وهى تقول : —

— انا فقيرة يابنى •• لقمتى جايانى من معاشى •• عضمى ما استحملش •• ودمى ما فيهوش حاجة وعفشى زى ما انت شايف •• ما فيهوش حاجة تسوا •• حتى عندى رطوبة وروماتزم ما اقدرش انزل الشارع واصرخ واصيح •• بس اعمل ايه يابنى ؟

ووقف يفتش عن كلمة مناسبة يقولها وقطعت حيرته بقولها •

— ولا اقولك يابنى قصه •• أصلو انا يبنى شفت حاجات ومريت بتجارب •• آه آمال ايه •• الحق لله يابنى مش انا اللى شفت الحاجات دى •• اختى •• شقيقتى •• من لحمى ودمى هى اللى شافتها •• وآمال •• دا جوزها الله يرحمه •• كان شهيد •• الله يخرب بيت الصهاينه هم اللى قتلوه •• آه قولتلى قتلوه ازاى •

وبعدين يا ابنى ما اطولش عليك .

واسترخت علـى مقعدها وصـارت تحكى قصصا كثيرة ومتنوعه .. كـانت لهجتها صادقة ونبرة صوتها موترة .. وفى بعض المرات تخنقها الدموع فتلتقط باصابعها حبات الدمـع وتنفضها فى حركة متتابعه وعندما فرغت من اقاصيصها ورات الشحوب الذى طرأ عـلى وجـه ضيفها والاثر البالغ الـذى استطاعت أن تتركه فى نفس هذا الغريب احست براحه عميقة وصارت تنظر اليه فى مودة ثم قالت : ــ

ــ الا قولى يابنى قولتيلى جاى عشان الظرف الراهن .

وضـاق بسؤالهـا الذى فوجىء به تلجـلـج وتلعثم وبـان الارتباك فى صوته وهو يقول : ــ

ــ أيوه جاى عشان الظرف الراهن

عندما أحست بالحيرة التى هبطت عليه والقلق الذى شاع فى وجهه والنظرة الحزينة التى يتوسل بها أن تكف عن عذابه عندما احست بكل هذا قالت : ــ

ــ دا انا نسيت .. وفى كمان قصة أنما ايه ..

ولكنها توقفت فجأة .. وهى تبصر وجهه قد شحب شحوبا مخيفا وصار يفتح فمه فى مشقة بالغة .. وهو يمسك بيده جنبه الايسر ، ثم يغرز أسنانه فى شفته السفلى يمنع نفسه مـن الصراخ .. وفى سرعة نهضت اليه وفكت رباط عنقه وساعدته على الانتقال للكنبه .. ثم خلعت حذاءه وفتحت نافذة أطلقت

منها صيحة استغاثة •• وتقاطرت عليها الجارات •• وجاء آخر الامر طبيب عجوز وقال وهو يبصر الفتى الاسمر ممددا علـى الكنبه : ـــ

ـــ دا حالتو خطره اوى •• لازم تنقلوه حالا للمستشفى •

وعندما غادر الشاب الاسمر ذلـك المستشفى •• جـاء لحجرته خفية خوفا مـن أن تقع عليه عـين جارته التى اصبح لايطيق رؤيتها وقد اكتشفت حقيقته والكذبه التى تورط فيها •• وعندما وصل حجرته من غير ان تراه عين •• حمد الله وصـار وفى عجلة يحشر ملابسه فى حقيبته •• وهبط فى حذر •• وفى الدور الرابع كان يمشى على اطراف أصابعه وعندما اقترب من باب السيدة أجتازه مسرعا •• ولكن الباب يفتح فجأة ويجد نفسه امام السيدة ••

اما كيف استقبلته هكذا •• كيف انها ارسـلت زغـرودة وصعدت لها الجارات وظل بينهن شبه العريس بلا عرس فهذا هو الامر الذى ظل يفكر فيه طويلا بعد عودته •

الزائر الجديد

سعدية تجلس فى عنقريبها ، والمساء قد هبط على ذلك الحى البعيد من اطراف المدينة الكبيرة • اطفالها الخمسة يتخاطفون الطعام كعادتهم •• وكلبهم كاسر يرقد قريبا يتملق الاطفـال بذنبه •• وبنظرة مركزة عـلى الصحن الـذى تتناقص كسرته بسرعة هائلة •• وعندما يفـرغ الاطفال مـن مهمتهم العاجلة وترفع سعدية الصحن النظيف ، ينهض كاسر يلتقط بلسانه فتات الكسره الذى سقط من الاطفال بلا رغبة منهم • وتعود سعدية لجلستها والاولاد يشغلهم صعود الدجـاج للحائط •• وكاسر يجر خيبته ويختفى من المنزل • سعدية راقدة واطفالها يتابعون شيئا من راديو الجيران الذى يلعلع بصوت يسمعه كل انسان فى البيوت المجاورة وسعدية يصرفها خـاطر عـن لغط اطفالها وخلافهم الذى كانت تهتم له دائما بعد اشهر سترقد مرة اخرى لفترة طـويلة •• وستحضر والدتهـا للعناية بالبيت والاولاد والدتها كبيرة •• وستتعب كثيرا مع اطفالها بلا شك •• ولكن الذى يهم سعدية حقيقة هو زوجها « مرحوم » مرحوم لم تعد له طاقة يتحمل بها مولودا جـديدا ، راتبه صغير •• واولاده يلتهمون هذا الراتب وحلوقهم ناشـفه ونظراتهم فيها هـزال واضح •• أبدانهم معروقة ووجوههم محتقنة شاحبة تشبـه

ولكنه يفعل ذلك فى ضيق عظيم ، دمه فائر .. ووجهه مقلوب وهو دائما تركبه هذه الحال كلما شم رائحة شيء جديد فى الطريق ، ان زوجها لم يعد حقا كما كان ، لقد اصبحت تطل من عينيه نظرات غريبة أنه يتهمها بشيء ما لاشك انه يتهمها بأنها المسئولة من هذا الجيش من الاطفال الذى يحتل كل غرفه وركن فى البيت .. وهى لا تنكر الاتهام ولكنها مستعدة للتضحية بكل شيء لاستعادة لحظات وارفه عاشتها مع مرحوم .. ولكن هل يدرك شيئا من القلق الذى تعانيه والالم الذى يعتصرها كلما فكرت فى المولود الجديد . مرحوم طيب . انها تعرف ان الحاجة وحدها هى التى خلقت منه هذا الانسان الذى تكره .. الحاجة وحدها هى التى رسمت على وجهه هذه التقطيبة ووضعت على شفتيه هذه الكلمات الجارحة التى يستقبلها بها كلما احس انها تريد شيئا للزائر الجديد .. الذى اعلن عن مقدمه بلا رغبة فيه . اليوم سعدية تريد شيئا واحدا هى تريد هذا الشيء وتخاف من العينين الغائرتين والشفاه المنطبقة والاتهام الذى يطل من عينيه . أمها قالت انها فى حاجة لاشياء كثيرة ولكنها لن تفكر فيما قالته أمها والذى ترجوه شيئا واحدا ان خيالها لايتوق لاكثر منه ولكن لابد لها من ان تتصيد لحظة صفاء لتفضى اليه بما تريد .. وهى تعرفه جيدا هذه الايام .. ان وجهه مقلوب دائما . يدخل المنزل كعاصفة .. ويتلمس عنقريبه ليلقى عليه جسمه .. وويل لها ان بادرته بشيء لابد لها أن تلتزم الصمت التام .. ولابد لها من ان تبعد الصغار واخيرا

ـ الليله « عرس » سليمان صاحبى •
ـ طيب لماذا لم تخبرنى حتى لا انتظرك للعشاء ؟
ـ انا آسف يا سعديه •

وتسر سعديه بنظراته الهادئه وكلماته الرقيقة وتحمد الله فى سرها ، وتنهض وهى تأخذ منه الجلباب والعمامه والحذاء •• ومرحوم ينطوح بسرواله الطويل وهو يحسب الدجاج النائم فوق الحائط •• واطفاله الذين تكدسوا وناموا باوضاع مختلفة •• فلقد اتيحت لها الفرصة اسرع مما قدرت •• ولكن فجـأة يشع من عينى مرحوم قلق مملوء برعب وهو يمسح بطن زوجته بنظراته المخمورة • •وتحـس سعديـه بالكارثة تقترب بلا مقدمات وحاولت فى حركة تعمدت ان تكون عفـوية ان تغطى بطنها ولكن مرحوما تذكر كل شىء •• فتغيرت سحنته وانطبقت شفتاه الغليظتان فى غيظ مكتوم وصار يحدجها بنظرات قاسية وسعدية تتجاهل ماحدث وتنهض وهى تلف بدنها فى ثوب تعودت ان تنام به •• ويحها لقد تكدر الصفاء سريعا •• وما هى الا لحظات وينفجر مرحـوم يسبها ويلعن نسـاء الارض جميعا لحظتها أعطته ظهرها ورقدت ولكنه لا يفعل شيئا •• وهى تشعر به مستلقيا على قفاه فى عنقريبه يحدق فى النجوم كأنه مكلف بمراقبتها •• وهى لا تستطيع النوم سـعدية تعرفه جيدا • • مرحوم لن يسكت ابدا طالما ركبته هـذه الحال ••• الساعات تمضى بطيئة •• والأعين مفتوحة كل منهما ينظر فى اتجاه ••• والصمت يتحول الى مطارق هائلة تدق رأس سعدية بلا رحمة

شيء للناس

كان بشير الكسلاوى يسير فى الطريق ، وكلما أبصر أحــد اللوارى اقترب منه وظــل يطوف حوله باحثا عــن السائق او مساعده ، وكان دائما يجد اللوارى واقفه ولا يجد بالقرب منها انسانا ، وكان يتعجب كثيرا مــن ذلك ، فهو يعــرف تماما ، أن اللوارى عادة يحرسها المساعدون ، أين ذهبوا ؟ .. كـــان يهز رأسه ، ويجر اقدامه المتعبه باحثا عن لورى آخر ، وفى الميدان الذى يقع خلف مكتبة الفكر ، وجد بشير عددا هائلا من الناس قد تجمع هناك ، منذ سنوات لم ير بشير الناس يتجمعون هكذا، وكان أحدهم يتحدث ، وكـــان الناس يستمعون لحـــديثه تارة واخرى يهدرون بكلام كثير ، فيه غضب ، وفيه ثورة ، وكــــان بوده ، ان يقف ويسمع ويصيح ويصرخ أيضا .. وكان بوده ان يسأل هؤلاء الناس عن اللوارى ـــ ولكنه تسمر فى مكانه ، يشرف على الجموع من مكان بعيد ، كان جائعا ، وكــــان يحس ألما فى جنبه الايسر منذ يومين ، وكان يشعر بشقاء هائل ، تعذر معه معرفة شئ عـــن هؤلاء الناس ، الذين تولول صرخاتهم ، كأنهم يبكون عزيزا فقدوه .. وتذكر أنه لابد له مـــن ان يجـــد عربة تحمله « لخشم القربة » وخرج من كسلا ، يجر اقدامه المتعبه ويتناسى الالم والجـــوع .. ومكث هناك وقتا طويلا ،

ـــ اللوارى واقفة يا أفندى ••
ـــ وغير ذلك ؟
ـــ أشعر أن الناس غاضبون من شىء يا أفندى ••
ـــ أفهم من ذلك أنك لم تر شيئًا ملفتا للنظر ••
ـــ تذكرت يا أفندى ، بنات الثانوى تركن المدرسة ولا ادرى سبب غضبهن •
ـــ هل سمعت شيئًا عن الخرطوم ؟
ـــ وكيف أعرف شيئًا عن الخرطوم يا افندى • وانا لم اتناول شيئًا منذ أول أمس ••
ـــ كيف ؟ ••
ـــ صدقنى يا أفندى •• أنا تركت المستشفى وأنا جائع ، الخجل منعنى أن أسأل الناس شيئًا آكله •• وكنت أود الذهاب لاولادى فى خشم القربه ••
ـــ عندما نصل كسلا سأعطيك شيئًا •
ـــ لم أكن أقصد هذا يا أفندى ••

وعندما دخلت العربة كسلا ، اخذت طريقها للسوق ، ومرة اخرى يجد الكسلاوى نفسه بالقرب من الناس الذين تكاثر عددهم ، وأزداد صراخهم وهياجهم •• ولكن شيئًا واحدا ، كان يحرص عليه هذه المره ، فقد كانت يده تقبض على ريال ، واقترب من احد المطاعم وجلس •• وبدأ يأكل بنهم عجيب ، وعندما امتلأت بطنه ، أشار على صبى المطعم ان يحضر وسأله:

السيارة الانيقة تقف لتأخذه من الطريق ، والريال ، وصاحب المطعم وهذا البرميل المقلوب والدكتور الذى يقف عليه ، والناس الذين يستمعون واجمين الحواجز بين الناس تتلاشى وتذوب ، أصحاب الملابس النظيفة والرتب الكبيرة يلتصقون بالقمصان المشبعة بالزيت دون اكتراث ، الوجوه مكفهرة والعناد فى كل عين والغبار انتشر كشعيرات بيضاء تسللت لكل رأس •

وفجاة تتحرك الاقدام والاصوات ترتفع وتختلط ، ويسمع الكسلاوى اسم القطار ويحاول ان يشق له طريقا يخرج منه ولا يستطيع ، ويستسلم عندما وجد نفسه سائرا لا يستطيع الوقوف ، ولا يملك من أمر نفسه شيئا — وفى محط السكه الحديد كان الناس يتسابقون على القطارات وركب أخيرا سيصل « خشم القربه » ولن يجده الكمسارى ابدا وسط هذه الجموع الهائلة ، ولكن شيئا لفت نظره هذا قطار عجيب وغريب ، الناس هم الذين يجهزون القطار ويملئون العربات بالماء ويفتحون عربات البضاعة بأنفسهم ويضعون فيها الزاد الكثير ، والمودعون هم الذين حددوا وقت القيام وأشاروا على القطار بأن يتحرك ، أنه قطار بلا كمسارى •• ويسمع الكسلاوى شيئا عن الزحف للخرطوم ، فيلتفت لشخص يسأله :

— الى أين نحن ذاهبون يا أخى ؟

— الى الخرطوم ••

— هل سيقف القطار فى خشم القربة •

وجاء الصيف

كانت بيوتنا قد بنيت فى غابة •• استصلح جزء بنيت لنا فيه هذه المنازل وقد صارت الرقعة تتسع كلما زاد العمل وكثر الموظفون والعمال واتسعت زرائب الماشية ، وبعد فترة قصيرة أصبحت لنا قرية كاملة محاطة بهذا السلك الشائك •• فى أول القرية منازل الكبار ••• تليها المكاتب ثم منازل الموظفين التى تفصل بينها وبين منازل العمال فسحة مغطاة بشجيرات العشر ، كنت مساعدا للسيد ابراهيم ، وكان السيد ابراهيم صاحب شخصية من نوع فريد ، تحس بها وهو بعيد عنك ، كان لا يداخله شك فى أن هذه المستعمرة ملك خاص له •• حتى أجور الموظفين والعمال تبدو وكأنها تخرج من جيبه •• كان فى كل ما يصدر عنه يؤكد حقه المطلق وسطوته التى لا حد لها •• كنت حديث العهد بالعمل معه • ولم يكن يترك لى عملا أقوم به •• كان لا يثق فى انسان •• وعندما سمعت أنه يفكر فى عطلته السنوية •• بت أحلم كيف سأحكم هذه المستعمرة فى غيبة هذا الرجل الذى يشبه الغول •• كان جسمه هائلا ، وليست له رقبة ، كأن رأسه كرة عظيمة غرزت بين كفيه •• عيناه ضيقتان وفمه كهف معتم يقف على بوابته أربعة حراس فى أردية حمراء •

أما عبد الله الذى تأتى رتبته بعدى فقد خيل الى أنه يتشبه

وخرجوا بسحنهم المعفرة •• الوجـــوه المتربة تسيل عليهـــا الدهون التى تملأ الرءوس •• الصدور عارية •• والاثواب عبارة عن قطعة قماش مشربـــة بالزيت والغبار •• السيقـــان غليظة كآلات الحفر •• والصدور عريضة والسواعد مفتولة •• والوجوه تنزلق منها العين عندما تنظر لها •• لا تثبت اطلاقا على وجه منها •• كلها كالحة •• عليها غلالة من الاتربة المبتلة بالعرق والزيت •• غلالة تخفى حتى القسمات الرقيقة والملامح الحلوة •• فتبدو كوجه واحد يتكرر عند الصبية والشيخة •• أف •• أف •• ما هكذا كانت قصص الصيف •• أدير رأسى أهم بالذهاب •• الصفائح الفارغة تطرقع وتخشخش الاساور الرخيصة توسوس •• رجاء خافت •• كلمات تولد ميتة •• وتحايا واستعطاف •• أف •• أف ما هكذا كانت نساء الصيف •• شيء فى الداخل يشد بصرى اليه •• حوض النجيلة امتلأ وسال الماء •• البط يعوم يخرج •• ينشر أجنحته •• دجاج يتسابق •• طيور تهبط تمد مناقيرها ، تشم الماء •• الســـور الرفيع يفصل بين عالمين •• هنا حتى الدواب سمينة تتقلب فى مرعى لا نهاية له •• حتى الرمال تكسوها الخضرة وتشقهـــا الجداول فتحس بها لينة ناعمة ، لها طعمها ورائحتها ولونهـــا أيضـــا •••

عبد الله يشعر بقرف يمط رأسه فوق كتفى يهمس :

ــ انت لسه شفته حاجـــة •

صوتى غليظ ••• نبراتى جافة وأنا أقول :

يدى لامسكت به •• أصوات الدواب فى الحظائر مستمرة ولكنها غيرها فى النهار •• فيها ليونة كأن حلوقها مبلولة بنسمات المرعى الرطب •• عبد الله ألقى بتحية المساء وذهب كأن حاجزا قام بيننا منذ أن رحل السيد ابراهيم •• يخيل الى أننى أسمع جنزير الباب الكبير يتحرك •• أسرعت لطرف بيتى أنظر •• كان طابور من النساء وهن يحملن الصفائح على رؤوسهن ، وفى اللحظة التى أوشكت فيها أن أنطلق فيها لأمسك الحارس متلبسا بجريمته •• وجدته أمامى يقول :ـ

ـ دى أوامر السيد ابراهيم

قلت مغيظا :

ـ أوامر منو ؟

أردف فى ثقة بنفسه :

ـ أوامر السيد ابراهيم

لم أستطع اخفاء انفعالى وأنا أقول :

ـ لاكين أنا المسؤول دلوكت •

قال وهو يحاول أن يخفف من سخريته :

ـ دى أوامر دايمة يا سيد سعد ••

فكرت أن أمسك بعنقه وأسحقه ولكننى تذكرت السيد ابراهيم وما يمكن أن يحدث لى لو علم أننى استخففت بأوامره فقلت آخر الامر :

ـ طيب •• بس كنت تقول لى

قال معتذرا :ـ

الباب يفتح •• لم أهتم لهذا الامر •• ولكننى وبعد وقت طويل سمعت صوتا رفيعا يقرقر ، فنهضت من فراشى ••وبدأت أتجول •• وفجأة وجدت نفسى أمام عبد الله •• لم يرتبك •• أو يخجل •• أو يبدو منه ما يدل على أنه تورط فى خطأ فاحش •• ولكنه كان ينظر فى هدوء لظل انسان يبتعد •• وعندما وجدنى أقف صامتا ولا أقول شيئا •• اكتفى بقوله : —

— بالله ياخ ما تلخمنا •• السيد ابراهيم عارف كل حاجه ••

أجريت مقارنة سريعة بين حجمه وحجمى •• النتيجة لم تكن لصالحى ، مرة أخرى أبلع اهانتى •• واذهب واتعثر فى خجلى •• وصرت أتجول على غير هدى •• وقد رعت النيران فى جوف •• وعندما عدت لفراشى وقفت مذهولا •• كنت كتلميذ صغير يقف مرتبكا أمام ممتحن تعود الخوف منه •• شىء ناعم يتلوى على فراشى وعينان تنظران •• لم أقل شيئا وقفت وقد تملكتنى حيرة ودخل قلبى خوف لم يكن لى به عهد •• وعندما قرقر الصوت الرفيع •• خيل الى أن السيد ابراهيم ينظر من مكان ما لخيبتــى ويبتســم ••

قطار الليل

تحرك القطار من كوستى متجها للخرطوم •• وكنت أقف فى ممر الدرجة الثانية ، أحمل فى يدى حقيبة صغيرة وأبحث عن اسمى ورأيت سيدة تتحدث للكمسارى فى حدة ظاهرة ، وفهمت أن السيدات تشاجرن مع سيدة لانها تدخن ويحلو لها الوقوف فى الممر •• وقد امتعضن من تصرفاتها •• ومن أجل ذا فينبغى أن يجد الكمسارى لها مكانا آخر •• وخاصة أن المقصورة التى يجلسن فيها بها أكثر من العدد القانونى • وبعد جدل عـقيم وافقت النسوة على بقاء السيدة ••

ودخلت أحمل حقيبتى فى قمرة مجاورة لقمرة السيدات •• ورغم أنى قرأت اسمى على الباب ، فقد وجدت الناس مكدسين، بعضهم نائم فى أوضاع غريبة والمستيقظون منهم بدأوا كأنهم تماثيل شمع ، فاكتفيت بوضع حقيبتى •• ووقفت أمام الباب فى الممر •• أدخن لفافة •• وأنا أحسب الساعات المتبقية من الليل ومدى احتمالى للوقوف هكذا •••

وفتح باب مجاور وأطل منه وجه فتاة ، ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها ، وظلت تنظر لى •• كأنها تتوقع أن أتقدم اليها مصافحا •• ارتبكت من تجاهلى ووضعت رأسـهـا على نافذة القطار •• كانت فارعة ، لونها يميل لسمار غامـق •• عيناها

واسعتان وجميلتان •• وأنفها يبدو رائعا اذا قيس بشفتيها المكتنزتين فى غير تناسق وشعرها الجعد • ثوبها يظهر أكثر مما يخفى •• وفستانها قصير جدا واللفافة لا تفارق شفتيها •• وأحسست برجفة خفيفة •• فقد بدا لى هذا الوجه مألوفا •• أعطيتها ظهرى وحاولت أن أفتش ذاكرتى أن كنت أعرفها حقا •• لم تسعفنى الذاكرة بشيء •• ورأيتها تختلس لى النظر من نافذتها •• واذا بعطر قوى ينفذ الى ، وكنت دائما أكره هذا اللون من العطور والتى لها فى خلقى مكان خاص ينبغى ان لا تبرحه بأية حال •• وبعد فترة قصيرة أحسست بشيء من الحرج والليل قد انتصف والركاب قد استسلموا للنوم والممرات قد انقطعت فيها الحركة فحاولت أن أدخل القمرة عسى أن أجد بها موضعا لقدم ، ودهشت فقد أخذ زملائى حقهم كاملا •• ويبدو أنهم قد رأوا باتفاق بينهم أن لا يتركوا لى مجالا أكثر مما اخذته حقيبتى الصغيرة •• وعدت للمر وفوجئت بها تتحرك من النافذة وتواجهنى ثم تبسط يدها قائلة كأنها كانت ترتب هذا الامر فى نفسها منذ وقت : —

— ازيك يا الناظـــر

ودخلنـــى خوف ويدى تضم يدا خشنة كأنها قطعـــة من الخشب •• وحاولت أن تترك يدها تستريح برهة فى راحتى •• لولا اننى جذبت يدى ، الامر الذى يحدث عادة من الجانب الآخر •• ولتأكيد معرفتها سألتنـــى :

— انت دحين ما نقلوك من الابيض •••

الفزع يكبر ويتمدد داخلـــى ٠٠ هذه الشيطانة من تكون ؟
الايام التى خلفتها ورائى من شبابى تنكرت لها ٠٠ والوجوه التى عرفتها تلك الفترة ، أصبحت أبغض الوجوه الى نفسى ٠٠ وحتى الذكريات الحلوة لم أعد متشبثا بها ، لا أذكر أن صاحبة هذا الوجه كانت لها قصة فى حياتى ٠٠ كيفما كانت ٠٠ فماذا تريد منى ٠٠ وأى صدفة رمت بهـــا فى طريقى ٠٠ ولحظـــتى تلك لم أعد اهتم بنبش ذكرياتى قدر اهتمامى وخوفى من ظهور شخص يعرفنى وهذه المرأة تتحدث الى ٠

وكأن علاقة تمت بيننا فى ممر قطار الليل ٠

ــ وين ناس اسماعيل وعبد الله القصيرون ٠٠ آها ٠٠ سعيد ما قالوا عرس فى ام بادر ٠

لهجتها تذكرنى قرية بدأت فيها عملى كنـــاظر ٠٠ اسماعيل وعبدالله وسعيد ، كانوا اساتذة معى ٠٠ لا شك أنها كانت هناك ٠٠ ولكن من هى ؟ عشرة أعوام ولكننى لا زلت أذكر تلك القرية ٠

ــ انت دحين ماطالبنى حاجة ٠

وأخرجت علبة لفائفها وقدمـــت لى واحدة ٠٠ أخذتها وأنا اتلفت بلا شعور ٠

ــ قلت أنا طالبك حاجة ٠٠ والله بدور أول حاجة أعرف انت منـــو ؟

وظهر الكمسارى فى أول الممر واسودت الاشياء فى عينى ٠٠ وعانيت من الحرج ما لا قبل لى بتحمله ٠

واقترب الكمسارى ومرق خلفنا وقد تبينت ابتسامة خبيثة علقها على جانب شفتيه .

ــ عليك الله يا الناظر مـــا عرفتنى .. سمـــح امين المقاول والبنات كلهن برضو نسيتـــن ؟

وقلت فى نفسى (كلتوم) لاأكاد أصدق..ولكن لا شك انها هى.

وظهر فى أول الممر أحد المفتشين يتبعه عسكرى وجعل يوقظ النائمين بنقرات من قلمه على الابواب المغلقة .. وعندما اقترب منا .. دخلت كلتوم وتناولت حقيبتها وأخرجت منها عشرة تذاكر درجة ثالثة قدمتها مع تذكرتها للمفتش الذى قلبها سريعا وانتقل للقمرة المجاورة .. وناولته تذكرتى فأرجعها لى وهو يقرصهـــا بمقصه .. وعندما أعطانى ظهره .. خيل الى أنه مط شفتيه قرفا والتفتت الى كلتوم قائلة :

ــ القطر داخل محطة .. أخير امشى اشوف البنات ديل .. عن اذنك دقيقـــة ..

ووجدت نفسى وحيدا .. ووضعت وجهى على النافذة وقد هبت نسمات الفجر الرطبة .. وعادت لذاكرتى أيامى فى تلك القرية النائيـــة .

كنا قد انتقلنا من كرانك القش التى بنيناها لمدرستنا الوسطى بعد أن استلمنا من المقاول فصول المدرسة ومنازل المدرســـين وداخليتين .. الشىء الوحيد الذى كان يضايقنا آنذاك .. ان هذه المبانى بلا أبواب ولا نوافذ .. فقد ذكر المقاول .. أنه ليس فى العقد نص على شراء النوافذ والابواب .. وضايقنا

الى جانب ذلك ، أن البناء كان مستمرا فى بقية الداخليات ولكن ببطء شديد لندرة العمال الذين هجروا عملهم وعادوا لمواطنهم استعدادا لموسم الخريف .

وذات صباح وقف المقاول أمين يقول لـــى : ـــ

ـــ شوف يا الناظر أنا حسه ما لقيت عمال .. أسوى شنو ؟ أوقف الشغل ؟ .. ما معقول من باكر أنا ح أجيب بنات .

وكان قد ذكر لى هذه الفكرة ذات مساء ونحن نلعب الكونكان .. وسخرت منها .. لذلك وجدت نفسى أقول وقد سيطرت على حيرة عظيمة من لهجته الجادة :

ـــ حسه يا أمين ياخ المدرسة فاتحه والاولاد شايفهم براك.. فقاطعنى فى نبرة جافة :

ـــ يا استاذ رسل للوزارة خليها توقف الدراسة .. لاكين أنا شغلى بعملو .. ووزارتكم ذاتها ما تقدر تملى على شروط عمـــلى .

قال هذا وخرج غاضبا ووجدت أن لا مفر من مقابلة الوضع فدعوت المدرسين لاجتماع وذكرت لهـــم كل مادار بينى وبين المقاول .. وادركت القلق الذى حاول بعضهم أن يدسه .. وأخيرا طلبت من ضباط الداخليات أن لا يبارحوا الداخلية الا لامر هام .. وانتدبت مساعدا لكل ضابط ينوب عنه فى حالـــة غيابه .. وحسبت أننى قد اتخذت من الاجـــراءات ما يكفل هدوء البال ولكن المقاول عاد يقول لى :

ــ طبعا يا الناظر •• البنات ح يسكنن فى الداخلية الجديدة •• وقفزت كالملدوغ صائحا : ــ

ــ يازول انت داير تجننى مالك •• يعنى داير تسكنن جوه المدرسة كمان •• ما تبنى ليهن كرانك بره حرم المدرسة •

ــــــ

زى ما داير من عمال •• دايرنى اخسر لى خمسين جنيه كرانك ذنبى شنو ؟ •• انت يا زول تلاوينى كثير كدى •• أنا بوقــف الشغل دا •• وانت مسئول •

وخرج المقاول وجدت نفسى أدعو الاساتذة لاجتماع اخبرتهم فيه بآخر تطورات الموقف •• وطلبت منهم جميعا أن يعتبروا أنفسهم فى حالة طوارىء •• كما عينتهم جميعا ضباطا للداخليات •• فأصبح لكل داخلية ثلاثة ضباط وكل ضابط مسئول عن عنبر معين •

وفى صباح أحد الايام وقفت اللوارى أمام الداخلية الجديدة •• وهبطت من صناديقها فتيات ، كل منهن تحمل برشا ملفوفا وكيسا من القماش •• الوجوه كالحة •• وأبدانهن ســوداء مغبرة •• ملابسهن عبارة عن قطعة ســوداء من القماش •• الاقدام تنتعل فى الغالب اسفنجات كن يقفزن من اللوارى فى خفة عجيبة •• وقفت والاساتذة وقد هبط الامان على قلوبنــا •• فمنظرهن لا يسر •• ويبدو أن أذهاننا كانت مشغولة بفتيات الخرطوم •• فهؤلاء اللائى يتسابقن ويتشاجرن ويتصارعن

فأمرهن آخر •• وقد رأيتهن فيما بعد يحملن أقداح الاسمنت على الرؤوس ويتسلقن السلالم الطويلـة وفى المساء يوقدن النيران ويتحلقن جماعات •• يأكلن ويشربن ويتبادلن الشتائم ان واحدة منهن تستطيع أن تطرد أمامها عددا من طلاب مدرستنا ، وبرزت لنا فى تلك الايام « كلثوم » رئيسة العاملات •• وهـى ترتدى جلباب الرجال وتلف عمامة على رأسها وتنتعل مركوبا •• وتدس تحت شفتها السفلى « الصعوط » طوال اليوم • كانت فارعة ولها عينان واسعتـان •• وأنف يبدو رائعا اذا قيس بشفتيها المكتنزتين فى غير تناسق وشعرها المجعد • عملها كان جلب الفتيات والاشراف عليهن •• وقهرهن بشخصيتها القوية ، وكانت اذا أخطأت واحدة منهن أو تباطأت فى عملها •• تمـد يدها وتقبضها من شعرها القصير •• وتنهال عليها ضربا مبرحا •• وكانت الفتيات يرتعدن أمامها ويضعن ألف حساب لغضبها •• وكان المقاول مطمئنا لادارتها الحازمة •• وفى أحد الايـام وفى أيامهن الاخيرة ألحقت أذى بليغا بأحدى الفتيات •• فقد هشمت لها أسنانها بلكمة قوية وادانتها محكمة الناظر وصدر الحكم عليها بالغرامة وثلاثة أشهر سجنا • وكان المقاول متغيبا عن القرية فتحملت عنها الجنيه وأطلقت سراحها •• وكان ذلك آخر عهدى بهـا •

ــ بتفتكر فى شنو يا الناظر ؟ والتفت اليها ويبدو أنها قد حضرت منذ فترة ولم أنتبه لمجيئها فقلت : ــ

ـ البنات ديل موديامن وين ؟ فقالت وهى تدس لفافتها فى شفتيها الغليظتين :

ـ أمين ساب المبانى بقا شغلو سياسة .. أنا كمان سبت المبانى بقا شغلى مع الخرطوم .

ـ وشعرت باشمئزاز .. وحاولت أن أظهر لها امتعاضى . فقلت : ـ

ـ كنت بت شجاعة .. آخرتها تجى تسوى كدى ؟

فقالت وهى ترسل ضحكة خليعة : ـ

ـ كان بيت ابوك خرب .. أخير تشيل ليك طوبة .

قالت هذا واخرجت بطاقة أنيقة من صدرها بدأت تحـــركها كمروحة يد صغيرة .. ثم مدتها لى قائلة : ـ

ـ شــوف ..

والتقطت منها البطاقة وحدقت فيها برهة .. ثم أعدتها اليها فى عدم اهتمام مشوب بقرف .. وبدأت أذرع الممر الصامت جيئة وذهوبا وأنا اتحاشى نظراتها الغريبة ، وفى هذه اللحظة أمسكت يد بكتفى فى نهاية الممر : ـ

ـ فى قمرة نوم فاضية .. تدفع كم ؟ ..

غادة القرية

كنت أقف أمام متجرى .. المتاجرة تشكل دائرة كبيرة غير مكتملة وفى داخل هذه الدائرة قامت أشجار ضخمة ظليلة وتحت هذه الاشجار تجلس النسوة والصبـايا وقد فرشن أمامهن الحبوب المختلفة بجوار القففوالحبال وسعون الروبوزجاجات السمن البلدى والدجاج .. وسمعت صوتا يأتينى من داخـل المتجـر :

ــ انت الليلة يا احمد ما براك

ــ حليمة ما جات

ــ يا زول انت وكتك كلو بقيت تقيفو تعاين ليه حليمه ان شاله تانى ما تجـى .

واعتدلت فى وقفتى وأنا ما زلت أبحث عن حليمة بنظـراتى القلقة .. ولفت انتباهى أن بعض التجار خرجوا من حوانيتهم ينظرون .. وأدرت رأسى ثم وقفت على ظهر صندوق فأبصرتها كانت تمسك عنزا بيدها ، والعنز لا تطاوعها .. وأكثر من واحد تبرع لمساعدتها .. وبلا شعور انطلقت لأمد يد المساعدة مزاحما الذين هجروا حوانيتهم لمساعدة حليمه .. وعندما جلست حليمة فى سوق الشجر بدت غريبة كعادتها وسط هذا الجمع الغريب ..

فصاحباتها نسوة أرهقهن الزمن وصبايا جافاهن الحسن ••
والكثيرات منهن لا يضعن شيئا فى أقدامهن التى تشق الرمال
ليل نهار •• شعورهن قصيرة ، ليس لها لون محدد ، فكل يوم فى
حال بفعل الدهون والاتربة •• والثوب أصبح بلون الارض
يلف العجيزة ويبقى منه ذنب يغطى الرأس عندما يشتد وهج
الشمس •

حليمة وحدها انفردت بهذا الثوب الابيض الناصع •• بشرتها
بلون السمن الذى تحمله فى الزجاجات البيض •• عودها
ممتلىء وفارع وعيناها ساحرتان وشعرها تحت الثوب تلفه
بمنديل أحمر شأن بنات الجلابة تلك الايام •

كل ينظر متفائلا بهذا الوجه الجميل أول الصباح •• كثيرون
حاولوا أن يتبعوها وهى خارجة من السوق •• ولم يستطع واحد
أن يروى قصة له معها •• وكثيرون أملوا أن يصلوا اليها باذلين
كل ما يملكونه •• ولم يستطع واحد أن يحقق شيئا من هذا
الامل •• وبقيت حليمة كلغز وقنع الناس فى السوق بهذه
البسمة الغامضة التى أسكرتهم جميعا •• واصبحوا يكتفون
بهذه النظرات يرسلونها طوال النهار •• واذا تأخرت عن
موعدها ضاق السوق كله ، الحوانيت لا تسع أصحابها •• وحتى
الفتيات والنسوة الجالسات يجدن شيئا من القلق •• فحركة
البيع لا تكثر تحت الشجر وحليمة غائبة •

كنت الوحيد الذى لم تفتر همته من مطاردة حليمة ، وما زلت احوم حولها أتحين فرصة سانحة ، وحانت هذه اللحظة عندما سرت همهمة فى السوق •• الدونكى تعطل •• وبان الجزع فى كل الوجوه •• وبدأت الحوانيت تغلق أبوابها وتكاثر الناس على الماء فى السوق •• حليمة وحدها بين النساء التى استطاعت أن تفرغ الروب على الارض وتملأ برمتها بالماء •• ونسى الناس فى هلعهم كل شىء حتى حليمة •• ورأيت أن أغتنم انشغال الناس وخروجهم للبحث عن الماء ، فصديقى الذى يشاركنى المنزل والمتجر يعرف كسلى وانشغالى بأشياء لا يدخل الماء بينها •• فخرج ورجانى أن لا أغلق المتجر •• وقلت فى نفسى أن الامر يتوقف على بقاء حليمة •• وبالفعل بقيت حليمة حتى آخر النهار وهى ترمق من وقت لآخر برمتها المنتفخة بالماء •

وعندما أوشكت الشمس على المغيب نهضت حليمة وهى تضع البرمة فى حذر على رأسها وتقود العنز ••

ولم تستطع الاحتفاظ بالبرمة على رأسها والعنز تغرز أرجلها فى الرمال •• وأصبحت فى حيرة ظاهرة وتقدمت اليها وصرت أدفع العنز وحليمة تشكرنى بكلمات لمَ أكن أحلم بسماعها •• وعندما غابت الشمس كنا خارج القرية •• وكنت أجفف عرقى وأجر العنز تارة واحملها أخرى •• وحليمة تشجعنى وتشكرنى من غير أن تنطق ••

طريقنا ضيقة وعبارة عن شريط رفيع وسط شجيرات العشر والظلام قد هبط تماما . ولمحت نورا خافتا يقترب كلما تقدمنا خطوات .. وجاء كلب يقفز وعبر لحليمة عن شوقه بأن صار يدور حولها وينطـــلق تجاه النور الخافت ثم يكـــر راجعا .. وانطلق لسان حليمة مشيرة للعنز :

– خليها تمشى براها بعد دا .

وخشيت أن أطلق العنز فتنتهى مهمتى بذلك .. فتشبثت بها وانكرت أننى سمعت شيئا وظللت أقود العنز والعنز تتواثب تود أن تجرى لبيتها .. وعندما وقفنا أمام القطية وأطلقت العنز .. اختفت حليمة داخل بيتها ومددت نظرى وراءها فلم يقع على شيء سوى عنقريب منهوك ينام عليه شيخ وآخر صغير ملتصق بالارض .. وسمعت حليمة تقول شيئا .. وبعد برهة قصيرة نهض الرجل وخرج يرحب بى .. كان شيخا مريضا يمشى فى صعوبة شديدة ويتحدث كأنه يستل الكلمات من بطنـــه وعاد لرقدته بعد أن جاءت حليمة ووضعت أناء الشاى على جمرات .. الضوء الخافت يفرش دائرة أمام القطية وحليمة فى جلستها تبدو كأنها لا ترغب فى الحديث .. وأنا تدور فى رأسى أشياء كثيرة ، هل هى زوجة الرجل .. هل هى ابنته .. كيف تعيش فى هذا المكان المنقطع .. وسقط شيء داخل القطية .. والتفتت حليمة ثم أطلقت صرخة عظيمة .. فقد حاولت العنز أن تشرب ولكنها أسقطت البرمة وهشمتها .. وجرت حليمة تحاول أن تدرك شيئا من الماء ولكن الرمال شربته فى نهم عجيب .. والتقطت حليمة

عودا وانهالت على العنــز فى قسوة وترنحــت العنز وسقطت وحليمة تواصل ضربها •• واسرعت وأمسكت بيد حليمة التى بدت كأن مسا من الجنون قد أصابها •• فهى تقــول كلاما لا أفهمه ، ويهتز جسمها كله وقد ابتل عنقها بعرق لزج ونضح وجهها فأصبح كأنه مغسول بالزيت •• كل هذا حدث والشيخ فى رقدته ينظر صامتا ويحك ذقنه فى تفكير عميق كأنه يشهد آمرا لا يهمه ، وخرجت وجلست فى دائرة الضوء أمام القطية ، وأنا أنظر من وقت لآخر للعنز وهى تحرك رأسها فى ارهاق واضح وجسمها مطروح على الارض كأنها على وشك أن تنفق • أما حليمة فقد خرجت من غير أن تقول شيئا وبعد فترة سمعــت صوتها بعيدا فى الظلام تتحدث لامرأة ، ومضت لحظات مرهقة عادت بعدها حليمة تحمل فى يدها قرعة بها ماء ، نظرت لحليمة ثم لصفيحة فارغة وعندما كسرت طرفها أحسست بأن على أن أفعل شيئا ، فالتقطت الصفيحة وخرجت واعدا أن آتى لها بشىء من الماء •• كانت الظلمة شديدة ، وأنا أقيس فى ذهنى المسافة لاعرف القطية فى عودتى •• ووصلت القرية أسرع مما قدرت واستطعت أن أحصل على الماء من منزلنا •• وعدت خارج القرية التمس طريقى لقطية ضائعة فى الظلام •• كانت مهمتى أكثر صعوبة من كل تقديراتى •• فقد كنت أبسط يدى ولا أراها فى الظلام •• وكان على أن أبحث عن الدرب وسط شجيرات العشر التى وقفت تسد طريقى فى كل خطوة •• وجعلت أتخبط وقد أوشكت الصفيحة أن تهد كتفى ومن وقت لآخر أتحاشى سقوطها

فيندلق الماء الذى بت أحمـــله على جلبابى أكثر مما تحـــمله الصفيحة • ووصلـــت آخر الامر واستقبلتـــنى فى حرارة لم أصدقها وتناولت الصفيحة من كتـــفى ولا أدرى ان كانت قد تعمدت القاء ثوبها أم انه افلت منها ، فبات صدرها كله عاريا •• الشيخ استسلم للنوم •• أنفاسه المنتظمة تمدنى بكل أسباب الامن وهى تنظر اجلبابى المبتل وتضحك وقلت محاولا أن أخرج بها من القطية : ـــ

ـــ أنا مـــاشى

وخرجت وتبعتنى تودعنى •• تتحسس الطريق وتدلنى عليها ، وعندما تأكدت أننى ابتعدت بها •• التفت اليها وقد حملت نبرة صوتى كل ما اجتاحنى تلك اللحظة من انفعالات عارمة •

وفجأة لم أجدها •• كيف اختفت •• لا أدرى •• شىء كان فى يدى ••• ولكنه ذاب فجأة فى الظلام •• وعدت أبحث عن القطية •• وبعد جهد مرهق وقفت على مقربة منها ، ونبحنى الكلب لاول مرة وسمعت الشيخ يقول : ـــ

ـــ دا منـــو ؟

وتبعت عنادى فلم أتحرك •• واقترب الكلب وصار على وشك أن يثب لصدرى •• وصوت الشيخ ما زال يسأل : ـــ

ـــ منو •• دا منـــو

ووقفت أمام القطية وقلت :

ـــ دا أنا يا عمى •• كنت راجع السكة راحت منى ، وعجبت عندما أبصرت فراشها خاليا •• وجاءنى صوت الشيخ :

ـ حليمة ما وصلتـك ؟

ـ كانت مقدماني الا ..

ـ الا شنـو ؟

ـ الا لما رجعت مني .. ذاني تهت ..

ـ ومشت وين يا ولدي ..

ـ والله ما ني خابرها

ـ امكن بتتونس مع البنات ديكن .. امشي عليها .. قلهـا أبوك قالك توصليني حد بيتـي ..

ـ سمح يا عمي .. كتر خيرك ..

وتقدمت في الاتجاه الذي أشار اليه الشيخ ، وقد خفت نباح الكلب .. وما أن تقدمت عدة خطوات حتى نفذت لانفي رائحه قوية وتناهت الى ضحكات ناعمة وبدأت أصوات البنات تبـين وتتضح :

ـ رفيقك راح وين يا حليمه ؟

ـ الله يخربو ودر حسنتو

ـ ودرها كيفن يا حليمـه ؟

ـ قلتكي وانا ماشه معاهو .. بدور امسكو السكة اشوف ليك نفسو يقوم ويقعد .. اظن رقبتو قالتلو انا هملة

ـ انت ما جيبتيهو براك .. احنا قلنا .. خلاص حليمة سوت ليها راجـل ...

فقالت في سخرية ظاهرة :

ـ وكت السويهو •• ابقا فى الصيف وجلابى هدمو انضف من دلقونـــى ••

وعدت أدراجي وقد تملكتنى رغبة شاذة فى الحصول عليها مهما كلفنى الامر •• ولاحظ صاحبى اضطرابى وحيرتى خاصة وقد انقطعت حركة البيع تحت الاشجار •• وصار الماء شغل الناس الشاغل •• ووثقت علاقتى بوالدها المريض ، واصبحت زيارتى له عملا أقوم به كل مساء •• وكنت قد إستأجرت حمارا أخرج به فى الظلام لتلك القطية •• أحمل الماء العزيز واحمل هذه الشوق لتلك الفتاة التى باتت تهرب من بيتها رغم أن والدها كان ينكر جحودها ويحاول بكلماته الطيبة أن يظهر لى اغتباطه بزياراتى وبما أقدمه لهم من أشياء عزت حتى على الاغنياء تلك الايام •• وعرفت صاحباتها وقت مجيئى •• وكن يتســابقن لى أملا فى الفوز بالقليل من الماء وعواطفـــى •• بل ان بعضهن كن يبالغن فى ذلك وقد انتظرتنى مرة واحدة منهن وانا عائد فتبعتنى حتى بيتى أما حليمة فقد كانت فتاة غريبة الاطوار والشىء الذى آلمنى أن ثوبها الابيض اتسخ وان بسمتها الفاتنة غاضت ولكنها تعمد لهذه الدهون وتلك الروائح القوية وتحاول يائسة أن تحتفظ بكل ما تتوق اليه الانثى .

واحنقنى أن الامطار نزلت فجأة ذات صباح وان الحياة عادت سيرتها الاولى وقد ردت الروح لسوق الشجر وامتلأ بالنسوة والصبايا وجاءت حليمة تخطر بثوبها الابيـــض الناصع وبدأ التجار يخرجون من حوانيتهم ويحومون تحـــت الشجر ••

أحنقني أن المطر قد أفقدني عملا كنت أقوم به كل مساء وأجد فيه لذة لم تعدلها لذة في حياتي •• وكنت كعيري أحسب أن الايام الماضية كانت أنسب الايام للوصول لقلوب الفتيات •• أما وقد جاء المطر وسالت الاودية فان الامر بعد اليوم جد مختلف •• وانقطعت حليمة أياما •• والتقيت بها ذات صباح وهي تدخل السوق وقرأت في عينيها شيئا شجعني على زيارة بيتها ••• عندما تركت القرية خلفي ذاك المساء •• كان القمر يشبه كرة هائلة وكانت الطريق واضحة ورأيت القطية واتجهت اليها وفجأة وقفت أمامي حليمة كأنها كانت تتبعني خلف شجيرات العشر •• عندما حاولت أن أفتح فمي •• أسكتتني بأصابعها وأمسكت يدي وتبعتها وجلسنا على ربوة •• وبعد فترة قالت :

ـ انت بتدور شنو ؟

ـ أنا •• ؟

قلتها متعجبا •• ألم تفهم حتى الآن ماذا أريد ••

ـ آي قلت ليك •• بدور شنو •• ؟

وامتلأت نبرة صوتي ببحة أنكرتها أذناي ••

ـ بدورك انت يا حليمه ••

ـ بتنطيني شنو ؟

ـ اطلبي الدايراهو

ـ وكان بقا غالي ؟

ـ برضو بجيبو ليك

ـ بدورك تسوى لينا دونكـــى

وحسبت أنها تمزح ولكنها قالت العبارة فى براءة عجيبة وفى صدق وخيل الى أنها تعبث وانه لا بد من أضع نهاية هذه الليلة لهذه القصة التى طالت فقلت :

ـ الدونكى صعب .. الا بحفر ليكم بير .

فأرسلت ضحكة لها رنين لم أسمع له مثيلا وقالت :

ـ بير فى الرملة ؟؟!!

ـ ما شفت الوادى فوقو طينة .. كان درتو بحفر ليكم فيها بـــير ..

فقالت متعجبـــة : ـ

ـ طينة فوق الوادى ؟ ..

ـ ما شفتيهـــا ؟ ..

ـ لا ما شفتهـــا ..

ـ تعالى أوريك ليهـــا .

وتبعتنى فى براءة وقطعنا مشوارا طويلا حتى أشرفنا على الوادى.. وظللت أبحث عن شىء أعرف أنه غير موجود .. القمر يبدو فى متناول اليد ، وذرات الرمال البيضـــاء تشع كيواقيت منثورة .. والسكون تام .. ومن بعيد يأتينا نباح الكلاب كأنه الصدى .. وتملكتنى بلا مقدمات رغبة أحرقت أطراف أصابعى .. ولمحت بوادر انفعالى فلم تكترث وعندما حاولت أن أمد لها يدى تحفزت مثل اللبؤة وقالت فى تقريع مرير :

ـ انت غشيتنى .. الطينة مافى .. زى عقلك ...

ولحظتها أدركت أننى عبيط ولأننى أصدق أنها ترفضنى وكل الفتيات يسعين خلف الرجال •• والدها لم ينكر رفقتها لى فى الظلمة •• لماذا تريد هذه الفتاة أن تخرجنى عن عقلى •• •• واندفعت نحوها كثور هائج فبادرتنى بلكمة قوية لم أتوقعها مطلقا ودار بيننا صراع رهيب •• وعدت لدارى منهكا أجرجر أقدامى وقد تمزق جلبابى ولم أنل شيئا حسبت أنه فى مقدورى •• وهالنى اننى لم أعد أرى الثوب الابيض فى سوق الشجر •• ولعل كل هذا زادنى تعلقا بها ، وفكرت جادا فى الزواج بها •

وسعيت لوالدها ذات ليلة وأخبرته بأمرى •• وهز الرجل رأسه وهو ينظر لثوب أبيض معلقا داخل القطية ، ولم أفهم شيئا وبعد جهد فهمت منه •• ان حليمة منذ صغرها متعلقة بالجلابة وانها كانت تحاكى نساءهن فى كل شيء •• وكانت تقول انها لن تتزوج الا منهم •• ولكنها منذ يومين فقط نزعت ثوبها وعلقته هنا وأصبحت مثل رفيقاتها تلبس ملابسهن وترافق الاولاد لحلقات الرقص فى طرف الوادى حتى الصباح •• وفهمت أخيرا أنه متعجب جدا لأن حليمة تركت حبها للجلابة بعد هذا العمر الطويل ••

نسمه عابرة

وقفت بنـــا العربة فى « شنقلى طوباى » وهى محط بين الفاشر ونيالا ، وهبطنا من العربة لنحتسى اقــداح الشـــاى الساخن والمقهى عبارة عن راكوبة هائلة من القش بها عدد كبير من العناقريب الصغيرة العارية ، وهى تتحول الى فندق عندما تأتيها العربات فى اخريات الليل كانت الســاعة تقارب منتصف الليل •• وسمعت سائق العربة يقول لمساعده :

ــ انزل الفرش

فعرفت اننا سننام هنا ، وضايقنى اهمالى لاننى لم احمل معى شيئا ارقد عليه ، أو أحمى به نفسى من البرد الذى يتحول فى هذا الخلاء لشىء مرعب ، من لحظتى تلك عــرفت اننى لن انام وبينى وبين الصباح ساعات ، اخذت عنقريبا وذهبت لركن بعيد واخرجت علبة السيجار وبدأت أدخن••ووقفت عربة ونزل المسافرون يسألون عن الشاى والعناقريب ووقعت عينى عــلى ثلاث فتيات ، عرفت من هيئتهن انهن مدرسات ، وبدا لى اننى أعرف احداهن فتتبعتها وهى تجلس •• ثم وهى تتحــدث •• وتحركت لاسأل النادل عن شىء وفى نفسى أن أبصرها عن قرب ووجدتها امامى تسعى للنادل فى اللحظة التى وقفت أسأله •• وقلت وأنا مأخوذ فى حيرة شديدة

ــ بثينة ..

وكان لقاؤنا غريبا ، وعرفت فيه انها تقصد مــع زميلاتها معرض سبدو ، وعرفت عملها بالتدريس فى دار فور بعــد ان طلقها صديقى ادريس ، ولا أحسب أن شيئا هزنى فى حياتى مثل ما فعل بى نبأ طلاق بثينة من ادريس .

كنت أقطن مع ادريس فى بيت واحد فى الخرطوم ، يــوم أحس هذه العاطفة الجميلة تولد فى نفسه ، كنت أعيش معه هذه اللحظات الرائعة التى يتفتح فيها الانسان للحياة ، يوم يلمسه المبضع السحرى . وكان ادريس فى ايامه تلك رقيق العود طويل القامة ، خفيف الحركة .. مرهفا لدرجة بعيدة كثير الانطواء . يحب الحياة والناس كأنه نبى ، وكنت أحس به كنسمة عابرة فى هــذه الحياة لاتلبث ان تذهب سريعا . ويــوم أحب بثينة وكانت مدرسة بمدرسة مجــاورة لبيتنا تأكدت مــن خطورة التجربة التى تعرض لها ادريس ، وحاولت ان اضع العقبات ، ولكننى وجــدته مدفوعا لبثينه بقــوة غامضة هائلة ، فباركت عاطفته آخر الامر ووقفت الى جواره الى أن تم الزواج وبعد ذلك فرقتنا الحياة .

ــ ولكن لماذا طلقك ادريس يابثينة ؟؟

وانتحت بى جانبا فى الراكوبة الكبيرة ، واقســمت انهــا لاتعرف شيئا ، كل الذى تعرفه انها كانت تحبه اكثر من اى شىء فى الحياة وكانت عاطفته نحوها قوية جارفة لم تعرف لها مثيلا ولكن فجأة وبلا سابق مقدمات يتغير .. فجأة تحس فى كل ما

يصدر عنه انه انسان يرغب فى فراقها كيفما كلفه الامـــر فقد تحول الى انسان فظ شرس لدرجة لا يصدقها انسان عرفه فى ايامه الماضية •• وبعد ذلك يقع الطلاق وتعود للتدريس وتنقطع اخباره عنها •• وقلت لها وانا احاول اخفاء مافى نفسى •

— اننى أرى دبلة ••

فرفعت الى عينين صامتتين وقالت فى شبه همس

— صدقنى يا أحمــد •• القلب الوفى مثل عــود الكبريت لايشعله شخصان ابدا •

قلت مأخوذا :

والآخر ماذنبه يابثينة ؟ •

فقالت فى الــم :

هو يعرف كل شىء •• لقد صارحته منذ البداية •• قلت له كل شىء ، ورغم ذلك رضى وأصر آملا اعادتى للحياة مرة اخرى •• ثق يا أحمد انا لا أخدع انسانا مطلقا •

وودعتها •• وعندما تحركت عربتنا •• كنت أجاهد نفسى حتى لا أبكـــــــى •

وبعد خمسة أشهر من ليلتنا تلك هبطت الخرطوم •• وكنت مشوقا لمقابلة صديقى القديم • فسعيت اليه وكان لقاؤنا فى عين البيت القديم ، الذى شهد ايامنا واحــلامنا الماضية •• كــان ادريس يجلس على مقعده مواجها لى •• كان نحيفا لدرجــة

مخيفة .. جلبابه يشبه قطعة القماش .. التى ترفعها الاعواد فى المزارع لاخافة الطيور .. العينان ذابلتان والايادى معروقة والوجه لانعرف فيه اثرا لما كان عليه .

وقلت وقد ثقل الصمت :

ـ بودى أن اعرف لماذا طلقت بثينة ؟ .

وقال وكأنه يتوقع سؤالى

ـ لأننى كرهت النسـاء .

ـ منذ متى ؟

ـ منذ ان تزوجت

ـ ولكن ماذنب المسكينة ؟

ـ علمت انها ستتزوج قريبا

ـ هل هذا يكفى ؟

ـ ماذا تريد المرأة أكثر من الزواج

ـ هذه قسوة يا ادريس

ـ هذه حقيقة

وقلت وقد عبرت ذاكرتى صور من أيامنا الماضية

ـ وضح أرجوك .. لم أفهم شيئا

قـال :

ـ الزوج عند المرأة كالفسـتان تخلعـه متى تريد والللون الفاقع يلائمها اكثر .

عجبت كيف يصدر هذا الكلام من صديقى الذى عرفته ..

وقلت :

ـ منطق غريب

ـ انني لاأرى ذلك

ـ هل لى ان اعرف لماذا طلقت بثينة ؟ .

ـ لانها امرأة

ـ وعندما تزوجتها الم تكن تعرف ذلك ؟ .

ـ لم أكن اكره المرأة آنذاك

ـ والآن

ـ اكرهها اكثر مما تتصور

ـ لمــــاذا ؟

ـ لانها مخلوق اناني لدرجة بعيدة

ـ والرجـــــل ؟

ـ الرجل مخلوق تعس ..

اوجد كل هذه الفراديس وسرقتها منه المرأة .

ـ لم أعد اعرفك ياأدريس ، شدة ماتغيرت

ـ هذه سنة الحياة

ـ ادريس

ـ نعــم

ـ الا زلت تحسبني صديقا قريبا الى نفسك ؟

ـ نعــم

ـ هل يضايقك سؤالى عن أشياء خاصة بك ؟ .

ـ ابــدا

ـ ماذا فعلت بثينة يا ادريس ؟

خيل الى انه يكتم انفعالا يجتاحه فى هذه اللحظة ثم قال :

ـ وجدت نفسى اكرهها

ـ الم يصدر عنها شىء اساء اليك ؟

ـ ابـــدا!

ـ ما سبب الكراهية ؟

ـ لا أدرى ..

ـ بم تبرر الكراهية

ـ ربما لان اسلوبها فى الحياة غريب

ـ كيف

ـ انها تحبنى .. لدرجة تخيفنى

ـ اهذا هو ما تبرر به

ـ نعـــم

ـ انت مجنون

ـ ربمـــا

ونهضت وقد الم بى قرف هائل من هذا المجنون الذى لـــم اعد اعرفه .. وأقسمت أن أقطع صلتى به ، وبعد أيام سمعت بزواج بثينة ، فتنفست متمنيا لها اياما سعيدة فى هذه المرة .. وفكرت فى الذهاب اليه لانهى اليه هذا الخبر وأقول له رأيى فى تصرفه الشائن .

وعندما اقتحمت عليه عزلته وجدته فريسة لسعال شديد . ولكنه يبصرنى ويحاول أن يخفى شيئا .. واتطلع اليه فى رعب هائل . وبعد ان اخلى السعال سبيله . لبثت صامتا ، وجلست

احدق فيه •• وقد رعت فى جوفى اشياء كثيرة وأخيرا قـــال متبرما :

ــ ما اكثر تطفلك

وحاولت أن أقول شيئا فلم أستطع •• فأردف :

ــ أرجو أن يكون قد هدأ خـــاطرك الآن ؟ فغمغمـــت ولم يسمعنى ••

وقـــال :

ــ مبروك •• لقد سمعت ان بثينة ستتزوج هذه الايام •• وفى هذا مايريحك •

وحدقت فيه فى بلاهة فقال : ــ

ــ ولماذا لا تنطق ؟

وملأت عينى سحابة داكنة • وجاءنى صوته كأنه آت من بئر
ــ حسنا اعرفت اخيرا •• لماذا طلقت بثينة ؟ •

وعندما خرجت كنت اقول لنفسى •• ليت بثينة لم تتزوج لننقذ معا حبيبها وصديقى الاحمق

ماأخذه الزمن

قال له وهو يقترب منه ويقف فى أدب :

ــ داير أشوف الست الناظرة .

ورجع الامين « البواب » بظهره للخلف وأسنده للباب وهو يجمع حاجبيه ويدعك أرنبة انفه بسبابته . وقال بعد ان نفذ صبر محدثه : ــ

ــ ممنوع يا افندى . دى مدارس حريم . يعنى عورات نـاس .

ــ انت كلم الناظره . قول ليها :

واحد بره قال داير اقابلك لى حاجه مهمه . كان ابت تعال قول لى ابت .

وقال عم الامين وهو يضع رجلا فوق آخرى ويتصنع الصبر : ــ

ــ يا افندى الكلام دا عيب . انت عايز تقطع عيشى . كان عندك كلام مع الناظره ماتمشى ليها فى البيت . وهو فى كلام بقولوه فى محل زى دا . غير كدى ما عارف ليك طريقه .

ــ سمح اكتب ليك ليها ورقة .

وضحك الشيخ وهو يقلب يدا فوق آخرى وقال : ـ

ـ والله عاد جنيات الزمن دا • باقى ماعندكم حيا • حسه دايرنى بى دقنى الشايبة دى اشيل ورقتك •• انتو اموركن دى مابتخلوها • يازول اختانى . اسبوع تمام حرقت فيهو روحى بلحيل •

ـ انت كان خرفت قول خرفت ساكت حسه والله الناظره كان عرفت انت بسوى كدى ما كان تريحك غايتو انا ماشى لاكين كان حصل ليك ضرر ياهو سويتو بى ايدك •

وعندما اختفى الرجل • بدا عم الامين يفكر لاول مـرة فى أمر هذا الزائر الغريب • هل آخطأ فى فهمه • لماذا شك فيه • لو علمت الست الناظرة بهذا الامر • هل تقبل تصرفه وترضى عنه ، ام انها تغضب وتوقع به عقوبة لقد اكثرت فى الفترة الاخيرة من الحديث عن خرفه • وها هـو هـذا الرجل يعيد هـذه الكلمة البغيضة وقرر أن يلحق بالرجل • وعندما نهض حاول أن يشد قامته بلا جدوى •• وحاول أن يسرع ولكنه كان يقلع رجليه فى مشقة واضحة • وعندما بلغ طرف الشارع كان الافندى قـد اختفى • وعند ماعاد لموضعه وجد الناظره تنتظره •

ـ انت ياعم الامين تخلى الباب فاتح بتمشى وين • حسه غنمايه دخلت واكلت الزهور •

وبلا شعور التفت للشارع الذى جـاء منه وحاول ببصره الضعيف أن يقيس المسافة التى قطعها جيئة وذهابا لـم تكن

المسافة عظيمة • ورغم ذلك فقد استغرق زمناً •

ــ الله يخليك يا الناظره • اصلو كنت بدور على الافندى •

ــ الافندى دا كمان شنو ياعم الامين ؟

ــ باقى انا ماقلت ليــك • الزول دا ليهو مــده بزوزى بى جاى • قال داير أقابلك أنا قلبى كدى ما كان مرتاح كت بطردو • حســه بعــد مافات قلبى اكلنى • قلت امكن الزول دا صحى عندو غــرض •

لم يشعر الامين بالغضب الذى اشتعل فى عينى الناظرة • ولم يلحظ النظرات الهائلة التى كانت ترميه بهابل انه لم يلمس فى وقفتها الحيرة التى هبطت عليها • ولا فى صوتها الاضطراب الذى اعتراه ، وآخر الامر قال عم الامين : ــ

ــ باقى لى كان انا غلطان • ابقى غلطان ساكت • واللــه مانى خرفــان •

ــ انت يعنى بقيت ولى امرى انا ولا شنو ياعم الامين ؟

فقال واحساس عميق بالحرج يجتاحه :ــ

ــ والله يا ست آمنة • أنا ما عارف الزول دا قلبى أباهو لى شــــنو

ــ شكلو كيفن ياعم الامين ؟

ــ زولن طويل • وشو ما بعرفو أكضب عليك لاكين صوتو كدى زى كانو راحيه ليهو حاجه •

ــ حسه دا وصف شنو • وكان الزول دا جا تانى أسألوا

داير شنو • ورفع يده صائحا والناظرة تبتعد منه •
ـ اها ما تذكرتو ليك قـال دايرك لى حاجـة خاصة • دا الزعلنى فى دى انا غلطان يا الناظرة ؟
وابتسمت رغما عنها قائله : ـ
ـ تبرأ من الغلط • لاكين برضو ماحقو تكلمنى •
ـ اكان كدى • يا هو انا غلطان الا برجع ما زولى دا • قطع شك برجع •
كلما حـاولت أن تنسى هذا الموضوع قفـز الى ذهنها • وعندما رن جرس التيلفون احسست لأول مـرة بلهفة • كأنها تنتظر مكالمة معينة ، وعندما خيبت المحادثة ظنها لم تفقد الامل ورن الجرس مرة أخرى • وسرت فى جسمها كله رعدة خفيفـة وهى تسمع صوتا عميقا يقول :
ـ كنت داير اقابل حضرتك لى حاجة مهمة على الاقـل بالنسبة لى • ودلوكتى عاوز آخد اذن منك ووجدت نفسهـا توافق على مقابلته وتنهى المحادثة • وهى مستسلمة كأنها أمام أمر مرتب • لاتملك غير الخضوع لـه شىء واحـد لم تغفره لنفسها ، لماذا اذنت له ان يقابلها هنا • مثل هذه المسائل الخاصة الا يستحسن بحثها فى البيوت ام انه حسب انها الآن طوع امره وفى مرحلة من العمر تتشبث فيها بأى طارق كيفما كان وعـلى أى صورة كان مجيئه ، وأحست أن كبرياءها قد جرح بوجه ما ثم وهى تذكر فى حسرة انها أفسدت نعمة الجمال بنقمة الغرور فذهبت هذه مع تلك ولم يبق لهـا الآن شىء من ماض عزيز •

فالذين كانت تسد الطريق أمامهم أصبحت تتبع أخبارهم وفى النفس حسره تحسها عميقة كلما أبصرت أثرا من آثار الايام يلمس شعرها بلونه أو يرسم خطــا من خطوطه على صفحة وجه كانت تبسم به الدنيا فى يوم ما •

آه كيف تنسى تلك الايام • انها تذكر أولهم • شاب طويل • له وجه يشبه وجوه الاطفال وعينان عميقتنان كــان ينتظرها فى مكان لا يتغير وكانت تراه كل صباح فى وقفته تلك كأنه نبت فى تلك البقعة • وذات يــوم وجدته يتقــدم لاهلها ممنيا نفســه بالفوز بها • ولم يقبل ولم يرفض• ولكنهم تركوا له أملا يتعلق به • ومن يومها بدأت بينهما مطاردة من نوع غريب وهى لاتنكرها فى نفسها ، وأصبحت صديقاتها يتخذن من حبه لها مادة للعبث والسخرية ، ورغم أنها كانت سعيدة بهذا الحب ، ورغــم أنها كانت تسر من اصراره وتمنى نفسها بنهاية حلوة ، الا انها كانت تسخر منه الامر الذى شجع صاحباتها على ذلك • وآخر الامر صدقت انها تضيق به وصدقت انها لا تبتهج برؤيته او سعيه • وصدقت التقطيبه التى تضعها على جبينها وتخدع بها الآخرين وعندما تقدم طالبا البت فى امــره رفضته وصدقت انها ارادت هذا الرفض واختفى ذلك الشاب وخطبت لاكثر من واحد ولم ترتبط بواحد منهم • ربما اخطــأ بعضهم ربما اخطــأت هى • ربما كانت الظروف وحدها هى المسئولة عن ذلك • ولكن الذى حدث انها وجدت نفسها وحيدة تقطع طريقا طويلة وموحشة ولم تعثر على انسان تقطع معه مشوار طالما هيأت نفسها له •

وفجأة فتح الباب ودخل البواب وقال :

ـ الزول ماقلت ليك بجى •• اها ادخلو ولا لا ؟

وانتزعت نفسها مما كانت فيه وقالت :

ـ خلى ادخل

ولامت نفسها كيف سمحت له بذلك • لو كان له غرض يتعلق بالمدرسة لما تردد كل هذا التردد • ولما اهتم كل هذا الاهتمام • وعندما ابصرته من نافذة المكتب خجلت من خواهرها شاب وسيم يملأ بدلة أنيقة • لاشك انها مخطئة كيف أصبحت فريسة سهلة لامل كذوب لماذا أصبحت تخطىء دائما فى حساب الاشياء وعندما دخل عليها ردت تحيته بهزة من رأسها • ولم تسطع أن تخفى ما اعتراها من خيبة أمل • وبدأ حديثه مرتبكا : ـ

ـ أنا يوسف محمد عبد الله • موظف بالسكه الحديد • من فترة طويلة كنت عاوز اقابلك لاكن كنت متردد ودلوكت وبعد ما دخلت شعرت أنى ما قادر أقول ليك كلامى • شايف المكتب ما مناسب للحاجات الخاصة دى ممكن اجى البيت لو ماعندك اعتراض •

وفهمت انه وفى لباقة يود اخذ موافقتها اولا وأحست برعشة فى صوتها : ـ

ـ اذا كان حضرتك بتشوف كذا مافى مانع • فقال وهو ينهض : ـ

ـ حسه انا مرتبط بى سفر لى مدنى بتاع يومين ثلاثة وأول ما ارجع ح اجيك •

كيف خرج ؟ كيف عقبت على كلماته ؟ هل قالت شيئا ، فهذه اشياء حارت فيها • وعندما راته من النافذة أمام الباب الخارجي تتبعته حتى اختفى وهى ذاهلة وحاولت ان تفكر فعجزت • عشرات الصور تتداخل فى ذاكرتها وتموج اعتصرت جبينها بأصابعها وصارت تضغط رأسها بيديها وأوشكت أن تنفجر باكية •

وقطع خواطرها دخول بثينة وهى مدرسة شابة ذات وجه صبوح وقامة فتانة ـ جاءت بثينة تثب كعادتها فى مشيتها • وكعادتها أيضا عند دخولها هذا المكتب وقفت ريثما تدس انوثتها فى خطوات صارمة وتكسو وجهها بغلالة من حزن وتمسح من شفتها ابتسامة حلوة • ولكن الناظرة تستقبلها ببسمة عريضة كأنها تحاول ان تمسح من نفسها أشياء وتتحدث اليها وهى مقبلة عليها كأنها تقدم عربونا لصفحة جديدة من علاقتهما وخرجت بثينة وهى تثب فى فرح حقيقى •

ومن يومها ذاك تغيرت وعجب كل من رآها فبشرتها الشاحبة بدأت تخفيها بطبقات الكريم وشعرها الناشف عرف الزيوت الفاخرة • وأقدامها التى كانت تدق بها الارض فى غير رحمة ضبط حركتها الكعب العالى فأصبحت تلمس الارض لمسا خفيفا لينا • وكانت أيام قلائل استدار فيها الحاجب واسود ، وانتعشت العينان وخرجتا مخضلتين ببريق طال العهد به •

وأورق الخدان وشمخ الانف • الثوب الهفهاف اصبح يكشف مواطن الجمال ، والفستان الانيق ابرز رهافه الخصر ، الصوت القوى خفت ورق والقامة المشدودة تكسرت ولانت ، واصبحت قريبة الشبه بفتاة كانتها فى يوم بعيد قرأت بادىء الامــــرفى عيون الكثيرين تساؤلا لم تهتم له ، ثم ابصرت فى نفس العيون اعجابا طالما اشتاقت له شىء واحد افزعها حقا وهو ان عم الامين بواب المدرسة دخل عليها ذات صباح وهو يدب فى فتور واضح كأنه يوشك ان ينكفى على الارض • كان فى لحظته أشبه بعلامة استفهام حية وعندما وقف زفر واطلق ســعالا خفيفــا مالبث أن تحول هذا السعال الى شىء يئز ازيزا مخيفا كأنــه يضع موتورا فى قفص صدره وبعد فترة تمالك نفسه وقال :

ـ حضرة الناظرة • الزول يغالط كل شىء الا العمر ، انا كبرت والشغل غلبنى والشالو منى الزمن مافى حاجة بترجعو ، غلاطى كتر وحيلتى كملت وحسه بدور اخلى الشغل •

فقالت وكأن شيئا ايقظها من حلم جميل :

ـ سمح كدى ياعم الامين ، تم سنتك دى ، كلها شــهرين تلاته وبعدين نشــوف ، امكن ربنا يقويك واديــك العافيه وفى مشقة قلب كفيه وشقت شفتيه بسمة تداخلت لها غضون وجهه وبرزت اسنانه السوداء المتفرقة وقال :

ـ الله يخليك يابتى ، كتر خيرك

وتراجع خطوات وخرج

ومضت الايام ، كانت بادىء الامر تنتظر فى شــوق غائبا

سيعود ، ولكن الايام تتلاحق ولا أثر او خبر وأنتابها شيء من الضيق ، ثم كثير من القلق والتوتر وهى ترقب الشهر الاول يستدير ويمضي ويبدأ الشهر الجديد وكل يوم فيه يقتل شيئا ف نفسها ، حتى شحب الوجه وغارت العينان ومات البريق • عندما تمتد يدها لادوات الزينة ترتعش وتحرقها غصة ف حلقها تقف كالجمرة معلقة هناك الى أن جاء يوم كفت فيه عن تعذيب نفسها • فلم تعد تهتم لشيء حتى عادت بلا شعور الى ماكانت عليه تدق الارض بأقدام قوية وتزعق بصوت قوى مثل الرجال ، تلف نفسها بثوب خشن كأنها شيعت لتوها عزيزا •

وأمام بابها جاءت بثينة ووقفت ريثما تدس أنوثتها ف خطوات صارمة وتكسو وجهها بغلالة من حزن وتمسح من شفتيها ابتسامة حلوة وعندما خرجت بثينة دخل عم الامين البواب كأنه يحمل شيئا اثقل من السنوات على ظهره ، ووقف امام الناظرة يقول وعينيه ترمشان من غير ان يرفع رأسه •

ــ ف واحد افندى يا الناظرة • • قال داير اقابلك اخلى ادخل ؟

الطلاق

فى مساء أحد الايام حمل لى غـلام ورقة صغيرة ، وما ان تقع عينى على الاسطر القليله ، حتى انهض مذعورا وتلاحظ زوجتى حركتى الغريبه فتقول : ـ

ـ ماذا حدث يا محمود ؟

والتفت اليها فى ضيق ظاهر .

ـ لاشىء

ـ أرى وجهك قد تغير ... قد حدث شىء ، لابد ان اعرف

ـ قلت لك لا شىء ..

ـ لا أصـــدق

ـ أف .. أف ..

واخرج سريعا من المنزل وأنا انشر الورقة الصغيرة .

« عزيزى محمود .. لقد طلبت سلمى الطلاق ، أرجو ان تحضر سريعا »

وأحس موجه من الاسى موجعة تسرى فى كيانى ، تهـزه هزا عنيفا ، كيف اصدق ان سلمى تطلب الطلاق اين ذهب حب سلمى لتوفيق ، ماذا فعل توفيق ، او ماذا حدث لسلمى ، اننى

لا اكاد اصدق ، وقطعت الطريق الطويلة المقفرة ، وأنا لا اشعر بنفسى الا امام منزل توفيق ، وادفع الباب وادخل لاجد صديقى فى صالة الديوان جالسا فى الظلمة كتمثال محفور هناك ولفافته مشتعلة ، كأنها تدلنى على مكانه ويسطع النور وتمتد يد توفيق وأتأكد وأنا أصافحه أنه يعيش لحظات عذاب هائلة ، ونجلس ويمضى الوقت ، وتوفيق يسبح ببصره كأنه ينسج خيوط قصة وأقول بعد ارهاق بطول صمته :

ــ ماذا حدث ياتوفيق ؟

ــ ••••••••••••

ــ ماذا حــدث يا توفيق ؟

ويهمس صوت غريب مخنوق لا اعرفه أبدا : ــ

ــ لقد طلبت سلمى الطلاق

ــ كيف ؟ اننى لا اصدق •

ــ لقد طلبت الطلاق

ــ سلمى طلبت ذلك ؟

ــ هذا ما حــــدث •

ــ لمـــاذا ؟

ــ لا اعرف •• أرجوك لا تسألنى ••

لم اجد صديقى فى حالة تسمح لى بأن اكثر من اسئلتى ، لعله كان يرجو شيئا واحدا منى ، وهو ان احضر وابقى بجانبه، لا شىء اكثر مـن ذلك وبقيت الى جانبه كمـا اراد ، أى اننى

تحولت الى تمثال آخر محفور بالقرب منه ، وبدأنا نسمع حركة الشارع تموت ، ونلاحظ الصمت الكئيب الذى يخلفه انقطاع الارجل وأواء الناس الى مضاجعهم ، وكنت عندما اشعل عود ثقاب يرفع توفيق رأسه المنكس كأنه يأسف لصدور هذا الازعاج من جهتى •• ولم اطق هذا الوضع فنهضت ، وامتدت يده الشاحبه لتجلسنى بقوة هائلة ويقول فى مرارة : —

— محمود •• هل يموت الحب ؟

— لا • الحب الحقيقى لا يموت أبدا يا توفيق

— لماذا طلبت الطلاق ؟

— انا لا اعرف عن القصة شيئا يا توفيق

— ليس من الضرورى ان تعرف لتستطيع الاجابة على اسئلتى •

— ••••••••••

— انا اعرف يا محمود انها غاضبة ، واعرف الخطأ الذى صدر منى •• وقد اعتذرت كثيرا •• لماذا طلبت الطلاق ؟

— لانها لم تستطع الحياة معك

— تعنى ان حبها قد مات

— لم اقل شيئا من هذا

— محمود ما يعذبنى هو شىء واحد ، هو اننا تعودنا ان نحب الصدق مثلا والمواقف العظيمة والتصرفات النبيلة و و •• ومن اجل هذا نوقف عواطفنا على هذه الاشياء ، فاذا فقدنا

بعضها عند احبائنا ، فقدنا عواطفنا نحوهم .

ـ هذا شيء طبيعي يا توفيق ان نحب الوفاء والاخلاص والمواقف العظيمة هل تطلب من امرأة ، ان تحب رجلا لانه يجرح شعورها ولانه يكذب ويخادع .. ؟

ولاول مرة تنفرج شفتاه عن بسمة حزينة ويقول : ـ

ـ اسمعني جيدا ، كنت أود ان اقول من اجل ان نحب شخصا معينا ينبغي ان نغفر له ان صدر منه ما يضايقنا ،وصدق عواطفنا نحوه يبدو في غفراننا ومواساتنا له في لحظات ضعفه وفي الاخذ بيده واعادة الثقة لنفسه .

ـ انت فيلسوف عظيم

وتلمع دمعة كبيرة يلتقطها توفيق بأصابعه المعروقة ويقول :

ـ عثرت سلمى على خطابات علوية ، وانت تعرف انني لم احدث سلمى عن قصتي مع علوية ، لم احدثها عنها ، لانها علاقة قديمة ، وانتهت قبل ان اتعرف بسلمى .. ولكن غباوتي شاءت ان احتفظ بتلك الرسائل . ومما يؤسف له ان الرسائل غير مؤرخه وانني كنت احتفظ بها في مكان يعتبر موضع اسراري .. ولكن سلمى سامحها الله اطلعت عليها ومن ثم تجمعت ارادتها في شيء واحد الطلاق ، لقد رفضت كل توسل ورجاء ، وانت تعلم حبي لقد اذلني هذا الحب بدرجة نسيت معها كرامتي وكبريائي ، ورغم ذلك رفضت سلمى وخرجت الى منزل والدها وهي لاتزال مصره على الطلاق .

وزوجتى التى احبتنى يوما ما هاهى ترانى انا رفيق حياتها وشريك أيام سعادتها اسقط من عـل الى هـوه سحيقه مـن البؤس والشقاء ، فلا ينبض قلبها بعاطفة ولا تهتم لما يصيبنى ، لماذا نقصر عواطفنا على الاشياء الجميله عند احبائنا ، لـماذا لانحب ضعفهم ونغفر لهم ونعيدهم للحياة ان ضلت بهم الطرق

وخرجت فى وقت متأخر لمنزلى بعد ان فتر بيننا الحـديث ولم اجد شيئا اقوله ، خرجت ، لمنزلى ، وكلمات توفيق قـد أفزعتنى كسهام مسمومة تنهش داخلى لقد بعث شيئا هائلا فى نفسى دون ان يدرك ، هل تحبنى زوجتى ، وما مقدار حبها لى كيف اتأكد من عواطفها نحوى هل تقف زوجتى دائما الى جـوارى هل يبقى حبها ويخلد ، ام انه يتلاشى ويموت يوم لن اتعرى أمامها وأسقط فى عمل غير ارادى • ما فائدة الوفاء والعهود ان كان كل شىء من هذا قاصرا عـلى ايام الصفاء • لقـد قتلنى توفيق ، لقد عدت مـن بيته شخصا آخـر ، لقد سـلب امنى وسيظل شبح الشك رابضا فى داخلى حتى تدفع الايام بى الى تجربة ، بل اننى بت اتلهف لهذه التجربة واتمنى دخولها لاصل الى الحقيقة ، وعندما ادخل منزلى تنهض زوجتى وهى تزعق :

ــ من اين حضرت ؟

ــ ••••••••

ــ قلت لك من اين حضرت ؟

ــ كان ينبغى ان تمكث هناك فلم يبق مـن الصباح الا سـاعات •

ـ ....

ـ اكذب .. قل اى شىء .. ولكن لا تبقى كهذا .

وتملكتنى رغبة مجنونة فى الوصول الى التجربة سريعا فقلت : ـ

ـ انا حر .. فلا ارى داعيا للتحقيق .

ـ حر ..

ـ نعم ..

لم تقل شيئا .. فقط نهضت وبدأت تجمع فى ملابسها ، وعلى شفتى تعلقت ابتسامة بلهاء .

وفى الصباح الباكر اخذتها بعربة لمنزل والدها ، وعدت لمنزلى انا الذى اصبحت شخصا آخر .

وفى المساء توجهت لزيارة توفيق لاقص عليه ماحدث بينى وبين زوجتى وكم كانت دهشتى عظيمة عندما استقبلنى بوجه طلق وقال : ـ

ـ لقد غفرت وعادت .

ـ غفرت ؟

ـ نعم .

ـ ما اشد قسوتنا نحن الرجال ..

وخرجت مسرعا بعد ان عادت لنفسى السكينة .

قطرة شوق

كانت محاسن قد حضرت من بيت العرس عند الجيران ، لم تمكث هناك وقتا يذكر ، لقد اعتذرت بانها مريضة •• ولم تكن مريضة •• وعندما أوت لمضجعها •• كانت الاصوات تملأ عليها الغرفة فتزيد ما فى نفسها من كآبة وظلت طوال الليل تتقلب على فراشها وتسأل نفسها •• لماذا اعتذرت •• لماذا خرجت •• انها تريد البقاء •• ولكنها تتذكر اشياء •• فتنسى رغبتها •• بل تخنقها •• وتلبث فى محاورة متعبه مع النوم •

وفى الصباح خرجت للمكتب •• طويلة •• رفيعه •• وجهها شاحب وعيناها ليس فيها البريق الذى يخطف ابصارنا عند فتاة فى سنها ، كأنها لم تعش هذه اللحظات الغنية فى عمر البنات •• اذ كانت تبدو كمن قفزت السنوات واشرفت على الايام التى تخافها النساء •• وأخذت طريقها لمحط البص •• خطواتها قوية وصلبة •• وما تضمها عربة البص •• حتى تنكمش فى مقعدها وهى لا ترفع بصرها ابدا ولا ترى احدا من هؤلاء الشبان الذين يشاركونها البص كل صباح •• ولعلهم ألفوها دائما هناك •• تحتل مقعدا •• لا يلمحون فيه أثرا لحياة •• ولم يكن لها جمال يثير خيالهم •• او يعطر لحظات هذه الجلسة المرهفة بما تنفثه المرأة الجميلة من سحر

•• ويتحرك البص وفى الطريق يصعد شبان ويهبط آخرون •• ولا احـد يلتفت اليها او يهمه مـن امرها شىء ومحاسن تدفن رأسها فى مجلة حتى يقف البص فى الخرطوم وفى آخر محط •• آنذاك تنهض الى مشيتها وتهبط اسرع مما يهبط الشبان وتأخذ طريقها الى بائع جرائد تتزود منه بالمجلات •

ودخلت مكتبها ذلك الصباح والقت بكلمة « صباح الخير » كما تعـود أن يلقيهـا الشبان ••• صوتهـا خشن ونبراتها جافة ولكن ما ان تجلس حتى تتكمش كأنها خجلة من كل مايصدر منها •• ولفت نظرها وجـود الموظف الجـديد •• واختلست نظرة •• ثم اختلست اخرى بعد فترة •• ثم بدت بلا شعور تنظر له وتتصيد الفرص لترفع رأسها •• وعجبت من نفسها ونظراتها وهذا الشعور الغريب •• لقد انقضت اجمـل أيامهـا كأنهـا فـى سبـاق لتدرك شيئا •• وكانـت لكثرة همومها وقد انقشعت تلك السحابه واصبح اكثر مـن انسان يقوم بدورها فى البيت تجد نفسها لاول مرة تفكـر فى نفسـها •• وفى زملائها الذين يشاركونها العمـل •• وما ان تذكرهم حتى تسرى فى جسمها كله رعدة •• تنتهى الى شعور هو اقرب الى القرف من اى شىء •• فهؤلاء الشبان كل واحد منهم حليق الشارب •• مصقول الوجـه •• ينفق اكثر فـراغه فى تصفيف شعره ودهن وجهـه •• وهم جميـعا يتسـابقون فى اقتنـاء الملابس الفاخـرة ويحلمون بالعربات رغم انهم موظفون صغار ••وهم فوق ذلك لا ينتبهون لها ولا يستشعرون

وجودها بينهم كأنها دخيلة •• لاتهمهم فى كثير او قليـــل ••
وهم لايخجلون ابدا من التحدث عن البنات ولا تفتر همتهم من
حديث التليفونات ورقم فلانه وعلانه ••

واختلست نظرة اخرى •• كان مربوع القامه •• يجلس
فى هدوء وتشع فى كل حركاته اصالة لم تعهدها فى هذا المكتب
صوته العميق •• يقطر شيقا •• حلوا ••

ــ اسم الاخت •• نسيتو

وتوقفت اصابعها التى كانت تجرى عــلى الحــروف ••
ومضت لحظة مرهفه •• ولما لم تجد موظفا يتطوع للاجــابة
على سؤاله قالت :

ــ محاسن •• محاسن عبد اللطيف

ــ انا آسف يامحاسن •• بس ذاكرتى شوية ضعيفه ••
ممكن يا محاسن تخلصى لى الورقة دى كمان •• يعنى لــو ما
فيها تعب ليك •• انا آسف من اول يوم اكون متعب كدى •

ــ مادام الاسف •• الحكاية بسيطة جدا •

ــ متشكر جــدا •

قال ذلك وعاد الى اوراقة • اما محاسن فقد كانت فى حالة
غريبة تماما •• عمرها لم يتحدث لها انسان بهذه الرقة •• لقد
كان مدهشا •• كلماته •• نطقتها لنفسها مرة أخرى وقلبتها
وأحست بها كانت تتمناها بخيالها •• وحاولت أن تركز انتباهها
فى عملها ، فأصابعها لم تعد تسلك طريقها فى سهولة كعادتها ••
لقد عادت تنظر للحروف وهى تكتب •• وعندما خرجت ذلك

النهار سمعته يودعها ، ودســت فرحتها وخرجت للطــريق . كانت تسير فى هدوء كأنها تكتب قصــة فى خيالها .. ونحس بأرجلها تضطرب فهذه المشية قد طــال بها العهد . الطــريق للبص اصبح طويلا . فتيات فى اعمال مختلفة كلهن يخطرن فى رشاقة كأن كل واحدة منهن تحلم ..

وفى المساء فكرت فى بيت العرس .. وانفقت وقتا طويلا فى الحمام وامام المرأة وامتدت يدهــا الى وجهها فتحسسته والى خصلة من شرها فأعادته الى مكانها ومســحت عليها فى رفق .. وكانت تنظر فى المرآة وهى تجرب اكثر مــن ثوب . حتى هــدأت واطمأنت ، فأخــذت طــريقها الى بيت العرس ودخلت فى الوقت الذى كانت فيه البنات فى طريقهن لديوان الرجال وتلفحت بالثوب على خلاف عادتها واندست وســط الثيــــاب .

ومضت ايام تغير كل شىء بالنسبة لمحاسن ..كانت عندما تنظر اليه تحس بدوار .. فهو منطلق عــلى **سجيته** .. بعيد عن كل تمثيل او تصنع .. يرســل النكات المهذبه الســاخرة ويضحك يهتز حتى تدمــع عيناه .. وله أفكاره التى يبثهــا بصوته العميق والذى يصل أعماقها ويحركها .. ان فيه رائحة الرجل الذى تبحث عنه .. وعادت للمرأة والفتها كصديقة .. وتعودت الوقوف امامها بلا ضجــر واصبحت **تتحسس** دائما وجهها وتبحث عن مواطن الســحر الذى غاض .. أمســكت أصابعها الشعر واعتصرته ومنحته شيئا من الجمال وصــارت

تلبس وتقرأ كما تقرأ وتلبس البنات وأصبحت تفكر فى الغد وتحلم كما تفكر وتحلم البنات .

واصبحت تكره ايام الجمع والعطلات .. وكانت تحب الصباح لانها تراه وتتحدث معه وتسمع صوته العميق وسخرياته من كل شيء . ورغم كل هذا لم تفكر فيه يوما كزوج لانها تعلمت أن تكون متواضعة فى أحلامها .. ولكنها كانت سعيدة كل السعاده بما يوفره لها من لحظات رائعة طوال بقائها فى المكتب .. وصارت العيون فى المكتب ترصد حركاتها والهمسات تدور من خلفها .. ثم يسعى بها الخبثاء لكل المكاتب . وذات صباح نقلت وداد لقسم محاسن ووداد فتاة جميلة وصغيرة ..وسرعان ماتعلق بها الموظفون واصبحوا فى مباراة غير خفيه لكسب ودها .. ولم يكن يهم محاسن فى هذه الفتاة الا شيء واحد .. وداد صغيرة وجميلة وخائفه دائما .. كأنها ارغمت على دخول تجربة لم يكن لها فيها خيار وكانت تجزع كثيرا من تودد الموظفين وتبحث بعينها الجميلتين عن انسان واحد تستطيع ان تعتمد عليه فى محنتها ولمحت صاحبها وبدأت تقترب منه .

ولمحت محاسن فى بوادر هذا الاقتراب خطرا ما بعده خطر .. فصاحبها انسان .. وبشر .. ومن من الرجال تسعى اليه مثل هذه الفتنة يصدها عنه .. هى لا تريد الزواج ولا تريد الدخول فى معركة تملك لها أسلحة .. ومن أجل هذا كفت عن هذه الاحلام وقبل أن تقتحم وداد المكتب .. ولكن وداد

ستطردها ولن تقنع بكل ما تحصل عليه من صاحبها حتى يبقى لها وحـــــدها .

واحست محاسن انها اصبحت ضيقة الصـــدر وان عملها اصبح مراقبة وداد التى افسحت لها الطريق مرغمه .. فاذا تحدثت قلبت كلماتها وفحصتها جيدا .. علها تشم منها شيئا .. واذا اقتربت من صاحبها ، فأن اصابعها تجمد على الحروف حتى تبتعد . وساد المكتب جو من التوتر والقلق أحس به كل موظف الا محاســن التى باتت لا تدرك تماما مايصدر عنها ، وذات صباح ناداها رئيس القسم ووقفت امامه كما تعودت ان تقف دائما .. وعندما رفع رأسه شملها بنظرة طويلة ثـم قـــال ..

ـ انت تعبانه الايام دى يا محاســن .. عملك بقا كلو ملخبط .. وانا بشـوفك محتاجة لى اجـازة .. ايه رأيك لو اخذت الاجازة بتاعتك .

وفجأة اجهشت باكية ..

وعندما عادت من عطلتها ..كان وجهها شاحبا وعيناها متعبتين ليس فيهما البريق الذى يخطف أبصارنا عند فتاة فى سنها .. ودخلت المكتب وسلمت بصوتها القوى وبنبرتـــه الجـافة .. وعندما جلست جاء يسألها فى براءة ان كانت قـــد استردت صحتها وقالت وشىء يبكى فى صدرها : ـ

ـ كان عندى زول تعبان .. الا حســه خلاص مات . . ارتاح وانا ارتحت برضو ..

القطة البرية

أحسست هذه الايام بمساحة بيتى تتسع بعد أن رحلت زوجى لتقيم مع ابنائها فى الابيض وبقيت وحيدا ، ولكننى كنت أشبه ملكا غير متوج ، فالقرية بأكملها تحيطنى باهتمام قد لا يتوفر أحيانا للناظر نفسه ، لم يحدث مطلقا أن سعى الناظر لانسان كما كان يسعى الى ، فلو ألم بى مرض خفيف ، أجد الناظر أمام بيتى يسأل عن صحتى الغالية ، الحقيقة أنه لا يدخل ولكنه يظل على ظهر حماره ويرفع صوته بالسلام ويدخل أحد الخفراء يبلغنى أن الناظر يسأل عنى فأخرج اليه وأقبل يده المبسوطة ، ويتحسسنى بشفقة تدلق داخلى فرحا حبيبا ، هكذا كان يهتم بى ، الكثيرون يسعون اليه بأبدانهم المهزولة ليسألهم عن صحتهم التى هدها المرض .

وكنت فى بعض الاحيان التذذ بالاعتكاف فى بيتى وادعاء المرض وأنا أبصر القرية تتخذ من بيتى كعبة تتجه اليها بقلوب واجفة ، كأن مرضى خطر داهم لم يوضع له حساب ، شىء واحد كان يرهقنى حقا ، فقد كنت ألحظ بوضوح أن الاهتمام بى موسمى ، وأن أهميتى لا تتألق الا مع الصيف وأنهم يشركون دائما مع محبتى هذا الصندوق الهائل المعلق فى الفضاء ، حيث ارتبط كلانا بالآخر ، فأحدنا من غير صاحبه

لا يساوى شيئا ، والغريب فى الامر أننى أصبحت أهتم بنفسى وأرى أنها تستحق أكثر مما تجد ، فعندما وجدت يوما نسوة يضعن زجاجات السمن أمام بابى لم أعجب لذلك ، بل ان عجبى ظهر عندما أبصرت احداهن تقتحم البيت لادخال الزجاجات •• ورأيتها تغسل يدها من طست الماء الكبير ولما لم تلحظ اعتراضى بسطت رجليها العجفاوين ومسحتهما بالماء ونهضت شاكرة •• وعندما نقل موسى السقا الماء لبيتى وملأ البراميل الكبيرة رفض أن يأخذ مليما •• بل كان لا يخفى فرحه بأننى اخترته لهذه المهمة •• كان له جسم ثور وعقل عصفور يظل طول النهار يسعى بحماره لنقل الماء ، وفى المساء يصرف نقود الصباح ، وله حركة فى الليل مثل حركته فى الصباح ففى كثير من البيوت يتقاضى ثمن الماء مريسة ، وليس له بيت أو امرأة ولكنه يربط حماره قرب الدونكى وينام حيثما تيسر له ، كنت أخشاه أكثر مما أخشى الآخرين ، خاصة عندما وجدته نائما بعد أن ملأ آخر برميل •

عندما استيقظ هرش ظهره فترة طويلة ونهض يقول :

ــ انتى يا الافندى •• ألمى كان انقطع بتمسكى لى الحمار؟

ورأيت أن أرشوه ليصمت فقلت :

ــ بمسكو بس ما تقول لى زول فى الى فى بيتى وهز رأسه فى مكر لم أعهده فيه • ثم ظهرت أمارات العبط فى بسمة قبيحة لا طعم لهــا ••

وبعد يومين على وجه التحديد كنت اجلس أمام بيتى وقد انتشرت الاخبار بان بئر الدونكى قد شحت واصبحت الماكنة تعوى وترفر ولا تخرج الا القليل من الماء وفى سرعة مذهلة تجمع الاهالى .. كل يحمل صفيحة يود أن يملأها بالماء .... وفى هذه اللحظة اندفعت محاولا قفل باب الدونكى ، فالاحواض الكبيرة داخل سور الدونكى ، ما زالت ممتلئة بالماء ولكنها محجوزة للابقار ، وأصحاب البقر دفعوا ثمن هذا الماء من الصباح كعادتهم كل يوم .. وكانوا دائما ينتظرون آخر اليوم

كل هذا كان معلوما لكل انسان ، وأحواض البقر نفسها كانت دائما تمتلىء بماء يعافه الناس .. أما هذا اليوم .. فقد أبصرت فى عيون الناس شيئا آخر .. ولعلهم بتجمعهم السريع أرادوا أن يقفلوا الطريق أمام دخول الابقار وبالفعل بدأوا يتصايحون :

البقر خلها تمشى لى دونكى اسماعيل بندور المى . وبنشيلها وأفلت الامر منى عندما ظهرت الابقار ، كانت دائما تأتى مندفعة للاحواض . كأنها لو لم تفعل ذلك لنفقت فى ساعتها من العطش ..

وتنحى الناس عن طريقها ولكنهم تبعوها فى تمرد ليس فى مقدورى أن أوقفه .. وبدأوا يغرفون من الاحواض وهم فى سباق مع الابقار التى فتحت أفواهها كمضخات ضخمة هائلة العدد .. كانت تشرب فى نهم وفى سباق واضح .. والابقار

التى وصلت متأخرة كانت تشم الاحواض الفارغة وترفع أعناقها تدور في أعينها نظرات ذاهلة .. وقد اشتبك أصحابها مع الذين كانوا يحملون صفائح الماء خارج الدونكى .. كانوا يفحصون الماء فاذا وجدوا رائحة البقر صادروه ولم يستطيعوا أن يحجزوا شيئا من الماء الكثير الذى خرج .

وأمضيت ليلة لم أذق فيهما طعما للنوم .. فالناس الذين هجروا دورهم وقراهم كانوا يثرثرون حتى الصباح . وكنت أخشى أن يعلم هذا الجمع أمر الماء الذى تمتلىء به البراميل الكبيرة فى بيتى ، فأنا الانسان الوحيد الذى كان يعلم أمر البئر جيدا ، وقد تعلمت أن أكون مستعدا لايام الجفاف التى قد تمتد وتطول .

وفى الصباح أيقن الناس أن البئر قد شحت حقا فانفك حصارهم واتجهوا نحو قرية بعيدة بها دونكى ابراهيم ، وبذلك تغير حال الناس ، كل هجر ما كان فى يده وأصبح يبحث عن الماء . وكنت عندما اذهب للسوق أحس بحرج كأن لى يدا فى موت البئر .. خاصة بعد ان كف الناس عن سؤالى .

لا أدرى كيف عرفت القرية أمر الماء المخزون فى بيتى فقد قامت مباراة خفية بين الفتيات لزيارة منزلى مستترات بالظلمة أملا فى الحصول على الماء .. واصبح الطرق المنفرد يكثر كلما تكاثف الظلام .. وكان دائما لصبية تحمل فى يدها جرة وفى عينيها وعدا بدفع الثمن كيفما كان .

وأنا من جهتى أصبحت خائفا ، كأن بيتى شرك منصــوب أخشى أن القى فيه أمرا لا أرضاه لنفسى .. بل مما زادنى هلعا أننى كنت أبصر فى عيون الاهالى حقدا غريبا .. ثمة اتهــام مخيف كان يدور فى العيون . وأصبحت على غير عادتى أتلفت وأنا سائر فى الطريق خوفا من هجوم لا أدرى من أين .. أو متى يجــىء .

ومرت أيام قلائل لم يحدث فيها شىء فسكنت الى شىء من الهدوء ، خاصة بعد أن هجر الرجال القرية وأصبحوا يقطعون المسافات الطويلة طلبا للمــاء ، كانوا يعودون قبــل انحدار الشمس ويمكثون فى بيوتهم ساعة المغيب ثم يخرجون مــرة أخرى ليناموا آخر الليل قرب دونكى ابراهيم ، الحوانيت فى السوق لم تعد تجد مشتريا ، والتجار كانوا يؤجرون العربات لجلب الماء ويجلسون تحت الاشجار يلعبون الورق طوال النهار ... وكنت أجد عندهم شيئا يشبه الغيرة ، فهم يحسبون أننى الوارث الوحيد لتركة كل الذين هجروا دورهم . وكانت تقلقنى هذه الافكار خاصة فان غضب الاهالى الذى أبصرته مشتعلا فى العيون كان فى حاجة لسماع شىء من هذا لينفجر .. ودفعا للتهم الباطلة فقد صرت على غير عادتى أكثر من الســهر فى بيوت التجار ألعب الورق الذى لم أعرف بحبى له فى يوم من الايــام .

ويبدو أن ما نخشاه وتفر منه يلقانا هكذا من غير حســاب أو تقدير .. امرأة تشبه القطة البرية اعترضت طريقى آخر

الليل •• كيف عرفت وقت أوبتى حتى تنتظرنى على بابها وبهذه الصورة •• وعندما تبينتها فزعت فزعا مريعا •• لقد سبق لزوجها أن قتل رجلا فى العام الماضى لأنه فتح بابه آخر الليل لهذه القطة •

وجعلت أشد خطواتى وأنا اسمع همسا ترتجف له أوصالى ••عندما رقدت••أحسست بها تقف جوار سور بيتى وتدخل يدها فى قصب السور تزيحه ثم تنفذ داخل البيت كأنها رمح ••• وظلت تجوس أنحاء البيت وأنا أتناوم وعطرها تركته فى كل موضع لمسته بيدها •• لم تمكث وقتا يذكر ولكنها خرجت وبعد أن ملأت جرتها بالماء •• ومن زاوية عينى اليمنى أبصرتها تقف •• عيناها تبرقان فى الظلام ثم تفلت فجأة من الثقب الذى أحدثته فى السور •

واشتدت مخاوف •• وصارت أحلامى كابوسا لا ينقطع ، وبت أهرب من بيتى فى الاوقات التى اعرف أنها تقتحم فيها منزلى •• ولكنها صارت تترك آثارا متعمدة ••• كأنها تنبهنى أنها على وشك أن تتفرغ لى • فتارة أجد لبنا معلقا فى « المشلعيب » وأخرى أجد بخورا يضوع •• وأخيرا طاب لها أن تستحم فى بيتى وتترك ما يذكرنى بأنها فعلت ذلك •• وأوشك الخوف أن يشل لسانى عندما قال لى أحد التجار ونحن نلعب الورق : ـ

ـ اخير ليك يا حسن شوف ليك بلد تانى

قلت وقد حاولت بلا جدوى أن أجد لسانى

ــ الحصل شنــو ؟

ــ انت ما عارف حكاية أبو سعيد

ــ كتلوه •• القــال ليهو سوى كدى منو ؟

ــ ياخ انت لسه باين عليك صغــير

ــ كيفــن ؟

ــ كيدهن يا حســن

ــ بتقصد شــنو ؟

ــ باقى المره دى عاملة زى المصيبة • البتمشى عليهو أمرو انتهــى

ــ وحسه انت بتقول كدى لى شنــو ؟

انت شفت منى حاجة •• ولا بتدور تعمل لى سمعة ساكت •

ــ أنا ما قلت حاجه •• أنا أخوك وبدور اناصحك

وفى طريقى لمنزلى •• كنت اقتلع أرجلى اقتلاعا •• وابصر فى كل شجرة عشر رجلا جالسا •• ينتظر وصولى لينقض على •• أستقر رأيى أن أهرب بجلدى أن كتبت لى السلامة حتى الصباح ، وعندما دخلت بيتى أبصرتها تخرج من حجرة الماء وهى ما زالت مبلولة وقد التفت بثوب • • ووقفت تنظر لى صامتة ••• جمالها المتوحش ينفث سحرا من نوع غريب ••• عطرها الصارخ كسرت الماء حدته •• فصار هادئا فيه رائحة شجيرات الريحان المدفونة فى الطــين •

وظلت تحاورنى فى رقة لم أتوقع أن أجدها عند هذه القطة الشرسة .. الامر الذى جعلنى انسى كل المخاوف التى افترستنى فى الايام الماضية .. وعندما أوشكت أن تصعد فراشى ، قفزت كالملدوغ وأنا أطلب منها أن تغادر بيتى وأن لا تعود مرة أخرى . ونظرت لى غير مصدقة ورأيت شفتها السفلى ترتجف فى غيظ مكتوم وفى عينيها حقد كبريائها الجريح .. وخرجت وهى تغرز نظراتها فى ارلاض .

وفى الصباح استيقظت على طرقات عنيفة .. وعندما فتحت الباب وجدت بعلها يسد الباب بجسمه الفارع ولم يمهلنى اذ أسرع قائلا : —

— ها زول .. سكينتى دى أكان ركت فوقها الضبانه تانى ما بتقوم .. لاكين أخير حكم الناظر .. الناظر بدورك

وفى بيت الناظر عقدت لى محكمة خاصة ، استمعت فيها للزوج ، يقول أنه تبع زوجته فى الظلام حتى رآها تدخل بيتى وانتظرها حتى خرجت ولديه شهود على ذلك . وهالنى انها اعترفت ثم قالت وهى تشمخ بأنفها :

— الزوله دى ألمى فى بيتها زى الوادى الشبعان

وتحدث الناظر كثيرا .. ثم أمرنى أن أدفع عشرة جنيهات كتعويض للزوج .. ولكن الزوج قال شيئا وافقه عليه الناظر لقد قال أنه يطلب براميل الماء التى كانت سببا فى اغواء زوجته ؟!

راجع الكتاب وصحح تجاربه الناشرون